هواجيس وردية

مئة قصة حب قتلها محب
رسائل لم ترسل

ابراهيم شربتجي

هواجيس وردية

ابراهيم جمال شربتجي

بسم الله الرحمن الرحيم

أيّها القارئ الكريم، تقف البشرية منذ فجر الوجود على أطلال القلبِ يتنازعه نداءان: نداء الحبّ الصادح في أعماق الروح بلسان الشوق والوله، ونداء القَدَرِ الصارم الذي ينسج بخيوطٍ من ظلالٍ ونورٍ مسيرةَ العمر في منعرجاتٍ لا تُعرف عواقبها. فهذان هما قِطبا الرحى التي تدور عليهما مأساةُ الإنسان ومُلحمتُه الأزليّة.

فالحبّ، ذلك السلطان الأعظم الذي أُودع قلبَ المرء، ليس مجرد نبضةٍ عابرة أو شعورٍ سطحيّ، بل هو كونٌ قائم الذات، تُشرق في سمائه شموسُ الأماني، وتتمايل في رياضه زهورُ الآمال، ويُغرد على أغصانه بلبلُ الأشواق بأنغامٍ تذوب لها الصخورُ وتخجلُ منها أعذبُ الأنغام. هو البحر الزاخر الذي تُقلّ أشرعتُنا في لجّته، مرةً على أمواجٍ من المسرّات، ومرةً بين أهوالِ الأعاصير والأنين.

ولكن، أيّها السالك دربَ القلب، ماذا لو اصطدمتْ سفينتُك الفتيّة بصخرةِ الأقدار الصمّاء؟ إنّ القَدَر، بتدابيره المحكمة وأسراره المُغْلَقة، لا يسأل عن هوى العاشقين ولا يستشيرُ خطّةَ المشتاقين. إنّه النقشُ الذي لا يُمحى، والسيفُ الذي لا يُردّ، يخطّ بيدٍ من حديدٍ مساراتٍ لا تخطر على بال، فيفرق بين الروح والروح، ويجعل من اللقاء حلمًا، ومن الفراق كابوسًا لا يُفاق منه.

وهنا، في هذا الميدان الفسيح، تبرز مرارةُ الزمان الذي لا يرحم. إنّه الغولُ الكاسر الذي يطحنُ بأضراسه كلَّ جميل، ويبلى بمرور أيامه ولياليه أزهى العهود وأعذبَ الذكريات. كم من قلوبٍ طاهرةٍ انكسرت على صخرةٍ من صخور زمانٍ غادر، وكم من عهودٍ ورديةٍ ذبلت تحت وطأةِ سنينَ ثقيلةٍ لا تعرفُ الرأفةَ ولا الشفقة.

فإن طالتْ بالمحبّ ليلُ الفراق، واشتدّ عليه وطأةَ الأيّام، وجفّ فيه معينُ الصبر، فإنّ السماءَ العادلةَ لم تتركه فريسةَ اليأس، بل منّت عليه بنعمةٍ إلهيّةٍ هي رحمةٌ للأحزان وبلسمٌ للجروح: النسيان. إنّه ليس جحودًا أو نكرانًا، بل هو شفاءٌ ربانيّ، ومَحوٌ رحيمٌ لألمٍ أصبحَ ذكراهُ جمرًا لا يُطاق.

هو اليدُ الخفيةُ التي تمحو ببطءٍ لكنْ بيقين، صورَ الأمسِ الأليم، لتمنح القلبَ فرصةً جديدةً لأن يُحبَّ، لأن يحيا.

وفي خضمّ هذه المعمعة بين هوى القلب وقسوةِ القَدَر ومرارةِ الزمان وعلاجِ النسيان، تنبع أسمى صور العظمة الإنسانية: التضحية. فتارةً تكون تضحيةً بالحبِّ نفسه، عندما يرفع المحبّ يده مبتسمًا ليُطلق سراحَ من يحب، مضاحيًا بسعادته في مذبحِ سعادة الحبيب، شاعرًا بأنّ أعظمَ غايةٍ للحبّ هي أن يرى الحبيبَ سعيدًا، كان الثمن هو الجحيمُ الأبديّ لقلبهِ الواله. وتارةً أخرى تكون تضحيةً للحبيب، فيبذلُ الروحَ والمالَ والعرقَ والدموعَ في سبيلِ ابتسامته، حاملاً عنهُ أثقالَ الدنيا، واقفًا إلى جواره كالسندِ الأشمّ، مستمدًّا قوّته من قوّةِ حبّه،وصبره من عمقِ إيمانه بأنّ الفداءَ هو أصدقُ لغاتِ القلبِ

غير مقتبسة من قصة حقيقية و أي تشابه هو مجرد صدفة

او ربما عن قصد

أهدي هذه الكلمات

لمن رأى في وحشتي وحدةً تستحق الصحبة.

ومن رأى في خسارتي معركةً تستحق القتال.

وللحيرة التي كانت أجمل من أيّ يقين.

وللقدر الذي كان أذكى من أي تخطيط.

شكرًا لمن كان الخيط الذي يربطني بالعالم حين كاد أن ينقطع.

الحقوق محفوظة للمؤلف ويمنع تداول الرواية

دون اذن خطي من الكاتب

الفصل الاول

(سنابل القمح)

فها هي ذي شمس حلب الذهبية تشرق خجولةً من بين آثار الجروح التي خلّفها الزمن الجارح على جبين المدينة العتيقة، لتلقي بخيوطها الأولى على حي من أحيائها التي ما زالت تتنفس بالحياة، رغم كل شيء. وفي غرفة صغيرة، تكاد تكون أشبه بخلوةِ متأمّل أو محرابِ عابد، كان قمح يستيقظ على همسِ والدته وهي تتنقل بين أروقة البيت كأنها ملاكٌ حارِس.

لم يكن قمح كسائر الفتيان في سنّ الخامسة عشرة. كان هناك عالمٌ كاملٌ يدور في أعماقه، لا يُطلِع عليه إلا من يمنحه مفتاحَ قلبه، ومفاتيحُ قلبه قليلةٌ جدًا. كان طويلًا، نحيلًا، كأنما نُحِت من ظلٍّ حزين. عيناه واسعتان، بلون القهوة العربية المُرّة، تحملان في أعماقهما بحرًا من الأسئلة التي لا تجد إجابة، ومشاعرَ طافحةً يخشى أن تُفضح. كان وجهه المستدير يُطوقه إطارٌ من خصلاتٍ شعريةٍ سوداء كالليل، دائمًا ما كانت تسقط على جبينه كأنها تحجب عنه ضجيج العالم.

كان كئيبًا بطبعهِ، لكن كآبته لم تكن جفافًا في الروح، بل كانت كالأرض القاحلة التي تخبئ تحت سطحها الجاف ينابيعَ ماءٍ غزيرة. كان يحمل همًّا أكبر من سنه، همًا ورثه عن دويّ القنابل وصرخات المدن المنكوبة، فصنع من هذا الهمّ غلافًا يعتزل خلفه، فصار غير اجتماعيّ بامتياز. المدرسةُ كانت كابوسًا متكررًا من النظرات السريعة والهمسات الخافتة التي كان يتوهم أنها عنه. كان يختار مقعده في آخر الصف، قريبًا من النافذة، ليسرح بعينيه حيثُ السلامُ الحقيقيّ: نحو السماء.

لكن هذه النفس المنطوية، كانت تحوي نقيضين عظيمين: التدين العميق، والحب الجارف.

كان التدين هو المتنفّس الذي وجد فيه قمحَ ملاذه. في السجود، بين يدي خالقه، كان يجد الكلمات التي يعجز عن قولها. كانت الآيات القرآنية تتلى بصوته الهادئ الخاشع فتملأ الغرفةَ طمأنينةً وسكينة. كان يرتدي دائمًا ملابسَ نظيفةً ومحتشمة، وطالما رأته والدتهُ في وقت السحر واقفًا يصلي بخشوع، تهمسي الدموعُ من عينيه دون أن يشعر، كأنه يفرغ كلّ ما في قلبه من ألمٍ وأملٍ بين يدي من يعلم السرّ وأخفى.

وأما الحب، فكان اللغة الثانية التي يتقنها قمحُ بإبداعٍ صامت. كان مُعطيًا بلا حدود. لا يملك من الدنيا شيئًا، لكن قلبه كان مليئًا بالعطاء. كان يرى أمه متعبةً فَيُسرعُ لاحتساءِ نصفِ أعمال البيت قبل أن تطلب. كان يدّخر من مصروفه القليل ليشتري لأخته الصغرى دفترًا جديدًا أو قلماً ملوناً. عطاؤه كان صامتًا كحبه، لا يرافقه ضجيج، كأنه يخجل من أن يُرى وهو يفعل الخير.

وكانت الزهور هي الحبّ الأعظم في حياته الدنيوية. في شرفة غرفته الصغيرة، أقام قمحُ مملكته الخضراء. أصصٌ من الفلّ والياسمين والنعناع والورد الجوري، كانت هي رفاقَ وحدته. كان يتحدث إليها همسًا، يسقيها بحنان، يمسح عن أوراقها الغبارَ وكأنه يمسح دمعًا عن خدّ طفل. كان يجد في ألوانها وروائحها عالماً لا خيانة فيه، ولا فراق، ولا ألم. كانت الزهورُ هي لغتهُ الشعريةُ للكون، رسائلهُ الصامتةُ إلى الجمال الذي ما زال موجودًا في هذا العالم.

ورغم كلّ هذه العزلة، كان قمحٌ حنونًا إلى درجةٍ مؤلمة. مشاعره كانت كالنهر الجاري تحت طبقاتٍ سميكةٍ من الجليد. كان يشعر

بألمِ أمه قبل أن تتأوه، ويرى حزنَ صديقهِ الوحيد في المدرسة قبل أن يبوح به. هذه الحنية الفياضة هي التي جعلت منه محبًّا بطبيعته، يبحث عن روحٍ تشاركه هذا الكمّ الهائل من المشاعر التي يخبئها.
– ليس بالمعنى "حبيب"كان يحلم بصداقةٍ واحدةٍ حقيقية، يحلم بـ التقليدي فحسب، بل برفيق درب، بنفسٍ توأم تفهم سكوته، وتقرأ ما بين سطور صمته، وتقبل هذا العطاء الهائل الذي يموت فيه لأنه لا يجد من يأخذه.

كان قمحٌ الفتى المسكون بالتناقضات الجميلة: المتدين الحاني، الكئيب المُعطي، المنعزل المحب، الذي يحمل في قلبه كل زهرةٍ في حلب، وكل ألمٍ فيها أيضًا. وهو الآن على أعتاب مرحلة جديدة في الصف الأول الثانوي، يحمل معه كل هذا العالم الثري، متسائلًا: هل سيكون هذا العالم ثقيلًا عليه أم أن الحياة سترسل له يومًا ما من يفكّ شفرته، ويفهم لغته، ويقبل

بتضحيته، ويُشرق على كآبته بنورٍ لا يغيب

“قبل ان اكمل سردي انا هو ذاك الميت الحي الذي يسرد عن نفسه وحبه ها هو ذا الذي مات حبا لم تفنى روحي لاتقلق انت المكسور الان سوف تنهض غدا لاتحزن ان الله معنا سوف اتردد اليك عزيزي القارى بين الفصول اشكو همومي لاني وحيد ارى نفسي في مرآتي و على وجهي خساراتي واكره ذاتي وما اقسه كره الذات للذات وبما انك لاترى خسراتي فاسمح لي ان اسرد لك مر الالام والحسرات”

انتهى قمح من صلاة الفجر بخشوعٍ عرفه به، نظر من نافذة غرفته إلى شرفته الصغيرة حيث كانت زهوره تستيقطِرُ ندى الفجر الأخير، فابتسم لها ابتسامةً حزينةً هي أقرب إلى الوداع. كان يعلم أن اليوم سيكون معركةً من نوعٍ آخر. معركةٌ ضدّ نظراتٍ لا تفهم،

وكلماتٍ لا ترحم، وضدّ ذلك الكمّ الهائل من الضوضاء البشرية التي كانت تثقلُ على روحه الهادئة.

ارتدى ملابسه المدرسية البسيطة والنظيفة، تناول إفطاره الخفيف وهو يصغي إلى توجيهات أمه التي لا تنتهي، والتي كانت تخرج من فمها كأنها صلواتٌ خفيةٌ لتحفظه من شرّ العالم. ثم انحنى يقبّل رأسها، فشَمَّ فيها رائحة الأمان والحنين.

خرج من البيت، وكانت شمس الصباح تضرب حواري حلب القديمة، فيمشي مسرعًا، بل يمرُحُ مهرولاً كأنه يفرُّ من شبحٍ ما، أو كأنه يحاولُ أن يترك كلَّ هموم البيت وخلفه. كانت خطواته طويلةً متعجلة، وعيناه على الرصيف، يتجنّبُ النظر مع المارة.

. كان صخبُ "مدرسة"وصل إلى ذلك المبنى الضخم الذي يُدعى الطلبة يضربُ سَماءَ الساحة كأمواجٍ متلاطمة. وقف للحظة على باب الصف، كأنه يستجمعُ قوَّته لخوض غمارِ محيطٍ هائج. ثم دخل.

تحياتٌ ثقيلةٌ على اللسان

رأى وجوهًا بعضها مالوفة ، وبعضها غريب. تقدم نحو مجموعةٍ من الزملاء الذين كانوا يدرسون معه في السنوات الماضية. رفع يده في تحيةٍ صامتة، وهمس بكلماتٍ ميتةٍ خارجةٍ من أعماقه وكأنها تُسحَبُ سَحبًا:

"السلام عليكم... كيف حالكم؟"

كانت التحية مثقلةً بالتعب، مثقلةً بثقلِ عالمه الداخليّ، فجاءت وكأنها صرخةٌ مكتومةٌ تطلبُ الرحيل. لم ينتظر إجابةً طويلة، بل اكتفى بابتسامةٍ ضعيفةٍ ثم انسحبَ سريعًا إلى مقعده المفضل في

آخر الصف، قرب النافذة، حيث يمكنه أن يهربَ بعينيه إلى العالم الخارجي.

المعلمون.. وأصواتٌ تلعن وجودها

بدأ المعلمون يدخلون واحدًا تلو الآخر، يعرّفون عن أنفسهم، ويشرحون منهاج العام. كان قمحٌ جالسًا في مكانه، يائسًا من الحياة، يشعرُ وكأنه حبيسٌ في زنزانةٍ زمنية. كان يستمعُ لهم، لكنّ عقله كان يحلّقُ بعيدًا بين أزهار شرفته، أو بين آياتٍ كانت ترتِّلُ نفسها في رأسه.

كان يحاولُ أن يركزَ في كلامِ مدرسِ اللغة العربية، الذي كان يتحدّثُ عن بلاغةِ النصِّ وأسرارِ البيان، فوجدَ في كلامه ملاذًا مؤقتًا لروحه المرهقة. لكنّ هذا التركيزَ ما لبثَ أن تشتَّتَ.

الضحكات.. والجرس الذي دق في أذنه

في المقاعد الأمامية، كانت مجموعةٌ من الفتيات يتبادلنَ أطرافَ الحديث، ثم ينفجرنَ في ضحكاتٍ مرحةٍ عالية، كقطراتِ ماءٍ متبلورةٍ على زجاجٍ بارد. كانت تلك الضحكاتُ تملأُ الفضاءَ فجأةً ثم تخفت، كأنها إبرٌ تطعنُ فراغَ الصفّ ثم تُسحَب.

وفجأة... حدثَ ما لم يكنْ في الحسبان.

ضَحِكتْ إحداهنّ ضحكةً واضحةً مميزةً، مرتفعةً بعضَ الشيء، ثم خَفَتَتْ سريعًا كأنها ارتبكت. لكنّ تلك الضحكةَ رنَّت في أذنِ قمحٍ رنَّةً غريبة. لم يكنْ يعرفُ من هي صاحبتها، ولم يرفعْ عينيه لينظر. بقيَّتْ تلك الضحكةُ تتردَّدُ في أذنه الداخلية وكأنها نغمةٌ على وترٍ حساس.

لم يستطعْ أن يحكمَ عليها، لم يكنْ يدري إن كانت جميلةً أم قبيحة. كلُّ ما يعرفه أنها اخترقتْ صمته بشكلٍ مختلف. كانت مفاجئة، غامضة، ومربكة. هزَّتْ رأسه للحظةٍ ثم عاد إلى كآبته، محاولاً إرجاعَ تركيزه إلى كلامِ المعلّم، لكنّ أذنهَ كانت ما تزالُ تبحثُ عن مصدرِ ذلك الصوتِ في الزحام.

أسبوعٌ من الصمت.. والوحدةُ التي تأكلُ الروح

مرّ الأسبوعُ الأولُ وكأنه سنةٌ من العذاب. لم يتكلمْ قمحٌ مع أحدٍ، إلا حينما اضطرَّ. حينما سأله مدرسُ الرياضياتُ سؤالاً مباشرًا فانطلقَ لسانهُ بإجابةٍ خاطفةٍ ثم جفَّ فورًا. أو حينما همسَ لزميلٍ بجواره ليسأله عن صفحةٍ في الكتاب، ثم انكمشَ مرةً أخرى داخلَ صدفته.

كان يشعرُ بـ شعورٍ غريبٍ من الوحدة. إنها ليست الوحدةَ العادية، بل هي الوحدةَ وسطَ المحيط. كان محاطًا بعشراتِ الزملاء، بضحكاتهم وحركاتهم وحديثهم، لكنه كان يشعرُ وكأنه يقفُ خلفَ جدارٍ زجاجيٍّ سميك، يرى الجميعَ من خلاله، يسمعُهم، لكنه لا يستطيعُ أن يصلَ إليهم، ولا أن يصلوا إليه.

كان الأغربُ من ذلك ذلك الإحساسُ المُرُّ بأنه وحيدٌ بين مَن يعرفهم. كان يعرفُ أسماءَ الكثيرين، يعرفُ وجوهَهم، يعرفُ من هم الأذكياءُ ومن هم المشاغبون. لكنّ هذه المعرفةَ كانت تزيدُ من وحدته. كان يشعرُ وكأنه شبحٌ يمرُّ بينهم، يراهم ولكنهم لا يرونه هو، لا يرون ما بداخله، لا يسمعون الموسيقى الحزينة التي تعزفُ في قلبه على مدارِ الساعة.

كان يخرجُ من المدرسةِ في نهايةِ اليوم، فيشعرُ وكأنه خرجَ من غرفةِ محاكمة. يتنفسُ الصعداء، ويسرعُ خطاه عائدًا إلى بيته، إلى غرفته، إلى زهوره. هناك فقط، حيثُ الصمتُ الذي يفهمُه، والحنانُ

الذي لا يحتاجُ إلى كلمات، كان يجدُ ملاذه الآمن. كان يَسقيها وهو يتمتمُ لها بما حدثَ في يومه، وكأنها الوحيدةُ التي تستمعُ إليه حقًّا، وتفهمُ ذلك الإحساسَ الغريب.إحساسَ الوحدةِ

وسطَ كلِّ الناس

الأيامُ تمرُّ كقطارٍ ثقيلِ الوطأة، يجرُّ خلفه عرباتٍ من الرمادِ والضجر. وها هو قمحٌ يجدُ نفسَه في نهايةِ الأسبوع الثاني، وقد أنهكته الوحدةُ إنهاكًا. لم تعدْ العزلةُ ذلك الحصنَ الآمِنَ الذي اعتادَه، بل تحوّلت إلى قفصٍ ضيّقٍ يُخنقُ أنفاسَه، ويُثقِلُ على صدره كصخرةٍ لا تُطاق. حتى زهورُه الحبيبةُ على الشُّرفةِ بدَتْ له وكأنها تنظرُ إليه بنظراتِ عتابٍ صامتة، تسأله: إلى متى ستبقى سجينَ صمتك؟

كان يشعرُ وكأن عتمة قد غشيتْ بصيرته الداخلية، فلم يعدْ يرى العالمَ إلا من خلال ستائرَ سميكةٍ من الكآبة. حتى صلاته التي كانت مُتنفَّسَه، صارت تحتاجُ إلى جهدٍ كبيرٍ لتركيزِ قلبٍ مشتَّتٍ وروحٍ متعبة.

وفي أحد الأيام، بينما كان يخرجُ من الصفِّ متجهًا إلى البيت، إذ بصوتٍ يعرفه يندفعُ من بين الأصوات:

"قمح! انتظرني!"

التفتَ ليجدَ زميلاً قديمًا من سنواتِ الدراسةِ الماضية، لم يكنْ من ، "وسام"الأصدقاءِ المقربين، لكنه كان وجهًا ودودًا مألوفًا. كان الفتى الاجتماعيُّ الطيّعُ الذي يجمعُ بين دماثةِ الخُلقِ وبساطةِ القلب. كان وسامٌ قد انتقلَ حديثًا إلى المدرسةِ نفسها.

المحاولة الأولى: خطوة خارج الجدار

ابتسم وسامٌ ابتسامةً صافيةً تملؤها البراءة، وسأله عن حاله. حاول قمحٌ أن يردَّ بالطريقةِ نفسها، بتحيةٍ ثقيلةٍ وميتة، لكن شيئًا ما كان مختلفًا هذه المرة. ربما كان التعبُ من الوحدة، أو ربما كانت الرغبةُ اليائسه في أن يسمعَ أحدٌ صوته، حتى لو كان مجرد همسة.

بدأ قمح يجرّبُ الانخراطَ قليلاً. كانت الكلماتُ تخرجُ متعثّرةً، كطفلٍ يتعلّمُ المشيَ لأول مرة. أجابَ عن سؤالٍ، ثم سألَ سؤالاً آخرَ عن كيفةِ انتقال وسام إلى المدرسة. كانت محادثةً عاديةً جدًا، لكنها كانت بمثابةِ زلزالٍ في عالمِ قمحِ المنعزل.

الدعوة التي غيرت اللعبة

نحنُ نذاكرُ أنا "ثم جاءت اللحظةُ الفاصلة. قال وسامٌ ببساطة: وبعضُ الأصدقاءِ في مقهى هادئٍ مخصّصٍ للطلابِ بعد المدرسة. "المكانُ نظيفٌ وهادئ، لمَ لا تأتي معنا اليوم؟

تردد قمحٌ للحظة. كان كلُّ كيانه يصرخُ رافضًا، خائفًا من المجهول، من الوجوهِ الجديدة، من الضجيجِ المتوقع. لكنّ صوتًا عميقًا من داخله، صوتًا أنهكته الوحدةُ وأتعبه الصمت، همسَ: "اذهب."

"حسنًا.. ممكن."قالها وكأنه يدفعُ جبلًا عن صدره:

في المقهى الهادئ: أول ضحكة تُدفئ القلب

ذهبوا إلى ذلك المقهى الصغير، كانت الأضواءُ خافتةً دافئة، والطاولاتُ متباعدة، ورائحةُ القهوةِ والكتبِ القديمةِ تملأُ الجو. كان هناك اثنان آخران من الزملاء، بدآ بالترحيبِ به ببساطةٍ دون إثارةِ ضجةٍ حول وجوده.

جلسوا يدرسون. في البداية، بقي قمحٌ صامتًا، منغمسًا في كتابه، لكنّ الأجواءَ الهادئةَ والاحترامَ الذي وجده بدأ يذيبُ الجليدَ حول قلبه شيئًا فشيئًا. ثم بدأ وسامٌ يسألُ عن بعضِ الدروس، فوجد قمحٌ نفسَه يُجيبُ، بل ويشرحُ بطريقةٍ أوضح.

ثم حدثَ شيءٌ لم يحدثْ منذُ سنوات.

طرح أحدُهم نكتةً بسيطةً متعلقةً بأحدِ المدرسين. ضحك الجميع. وبدونِ سابقِ إنذار انطلقتْ ضحكةٌ من صدرِ قمح. كانت ضحكةً خفيفةً، متلعثمةً في البداية، كأنها تخجلُ من خروجها، ثم ازدادتْ ثقةً قليلاً. كانت أولَ مرةٍ يضحكُ فيه خارجَ بيته، خارجَ عالمه الضيق. شعرَ وكأنّ سدًا قد انكسر في أعماقه.

اللسانُ يتحررُ بعد صمتٍ طويل

بعد الضحكة، نطقَ وتحرّكَ لسانهُ بعد صمتٍ طويل. لم يعدْ مجردَ مُجيب، بل أصبحَ مشاركًا. تحدثَ عن صعوبةِ مادةٍ ما، شاركَ برأيٍ في طريقةِ الحل. كانت كلماته لا تزالُ قليلةً ومختارةً بعناية، لكنها كانت كلماتٌ حية فيها روح، فيها مشاعر، فيها وجود.

كان يشعرُ وكأنه يخرجُ من قبرٍ كان قد دُفنَ فيه حيًا. كان يسمعُ صوتهِ هو يرنُّ في الهواء، فيسمعه الآخرون، فيردون عليه، فيحسُّ أنه أصبحَ جزءًا من هذه الدائرةِ الصغيرة. لم يكنْ بحاجةٍ إلى أن يكونَ روحَ المجلس، كان يكفيه أن يكونَ حاضرًا، مُسمَعًا، مُرَحبًا به.

في طريق العودة إلى البيت، كان يشعرُ بخفةٍ غريبة. كان الثقلُ الذي اعتادَ أن يحملهُ على كتفيه قد خفَّ بعضَ الشيء. نظرَ إلى السماءِ فوجدها ليستْ رماديةً كما كان يراها دائمًا. حتى أضواءُ المدينةِ ليلاً بدَتْ له وكأنها تومضُ له بترحيب.

عندما عاد إلى غرفته، نظر إلى زهوره على الشرفة، فابتسم لها ابتسامةً مختلفة. هذه المرة لم تكنْ ابتسامةَ وداع، بل كانت ابتسامةَ فتىً عاد من رحلةٍ طويلةٍ في بحرِ العزلة، ليجدَ أن هناك يابسةً تنتظره، وأن هناك قلوبًا يمكنُ أن ترسو عليها سفينتهُ الوحيدة

بعد أيام قليلة من تلك الجلسة الدراسية الهادئة، أصبح اللقاء في المقهى الصغير طقسًا أسبوعيًا مقدسًا بالنسبة لهم. وفي إحدى هذه الجلسات، بينما كانوا يتذمرون من تعقيدات منهج الفيزياء وكثافة منهج الجغرافيا، انطلقت الفكرة كالشرارة التي تُضيء عتمة الليل.

لماذا لا نتخلص من ضجيج الأساتذة وطريقة "قال وسام، متحمسًا: شرحهم المعقدة؟ لماذا لا نقدم مشروعًا علميًا يجمع بين هذه المواد؟ "شيء نبدعه نحن بأنفسنا!

ارتفعت الحماسة في المجموعة. كانت الفكرة جريئة ومثيرة. اقترح الطاقة المتجددة وتأثيرها على "أحدهم أن يكون المشروع عن ، وهو موضوع يربط بين الفيزياء "التغيرات الجغرافية والمناخية والجغرافيا بشكل طبيعي، ويحتاج إلى حسابات رياضية دقيقة من الرياضيات.

قرروا أن يكونوا مجموعة من أربعة أشخاص: هم أنفسهم. لكن سرعان ما أدركوا أن المشروع طموح ويحتاج إلى عقول ومهارات متنوعة. هنا، توقفوا قليلاً. نظر وسام إلى قمح، ثم قال المشروع يحتاج إلى دقة وإبداع. أعتقد أننا بحاجة إلى أن "بجرأة: ؟"نضيف لعقولنا عقلين آخرين. ماذا لو دعونا زنبقة و ريم

زنبقة

ما أن سمع قمح هذا الاسم حتى رنَّ في أذنه ذلك الصوت مرة أخرى. تلك الضحكة التي اخترقت صمته في اليوم الأول. لم يكن

يعرف اسمها من قبل، لكنه كان يعرف أنها هي. كان قلبه ينبض بسرعة غريبة. شعر بموجة من الخوف والفضول في آن واحد.

أما ريم، فكانت صديقة مقربة لزنبقة، معروفة بين الطلاب بذكائها الحاد ودقتها التنظيمية.

بعد نقاش قصير، وافق الجميع. كان قمح صامتًا، موافقًا بإيماءة من رأسه، لكن عينيه الواسعتين كانتا تحكيان قصةً من القلق والتوقع.

اللقاء المصيري

في اليوم التالي، في الفسحة، تقدم وسام نحو المجموعة التي كانت تضم زنبقة وريم. استمعتا للفكرة، وبدت الدهشة على وجهيهما، ثم تحولت إلى حماسة حقيقية. وافقتا على الفور.

وُجدوا جميعًا في ركن من ساحة المدرسة. وقف قمح متأخرًا قليلاً، وكأنه يختبئ خلف سترَة أصدقائه. كانت عيناه مثبتتين على الأرض، لكن أذنيه كانتا تصغيان بكل كيانه إلى الصوت الذي كان يترقبه.

ثم تحدثت.

"أهلاً بكم... أنا زنبقة."

كان صوتها رقيقًا، واضحًا، فيه نغمة دفء وحزم في آنٍ واحد. لم يكن مجرد ضحكة عابرة هذه المرة، بل كان كلامًا متصلًا. كان صوتًا يجمع بين رقة الزهرة التي تحمل اسمها وقوة جذعها.
بالنسبة لقمح، كان كل كلمة تنطقها كقطعة من لغز كان يحاول حله في داخله منذ ذلك اليوم الأول.

عرفت ريم بنفسها بعدها بصوت هادئ وجاد.

وتحت سماء حلب الصافية، وقفوا معًا: وسام المتحمس، وصديقهما الهادئ، وقمح الخجول المنكسر على نفسه، وزنبقة صاحبة الضحكة الرنانة والصوت الرقيق، وريم الجادة الذكية.

ها هم أولاء، مجموعة من أربعة أشخاص، اجتمعوا.

كانت لحظةً بسيطةً في ظاهرها، لكنها كانت تحمل في طياتها بذرة شيء جديد. لم تكن مجرد مجموعة دراسة، بل كانت لقاءً مصيريًا جمع بين قلوبٍ متفرقةٍ تحت سقف حلمٍ واحد. لم يتحدث قمح كثيرًا في ذلك اللقاء، لكن وجوده هناك، وسطهم، يسمع ذلك الصوت عن قرب، كان كفيلاً بأن يملأ قلبه بإحساسٍ غريب... إحساسٌ لم يعرفه منذ زمن طويل.

إحساسٌ اسمه **الأمل**

وهنا، حيث تلتقي الأنفس على أعتاب مغامرة لا تعرف مصيرها

الفصل الثاني

(صرير اقلام القدر)

اهلا عزيز القارى من الجميل انك تقرا ولم تمل

مع العلم اني لم اتبع طريقة سردي المعتادة لاني لم يبقى لي روح تتنفس حتى يبقى لي قلم يكتب المهم من الجميل ان ترى ماضيك اين كنت تتوقع ان تكون وكيف طعن الزمان بخططك لاجل خططه

ولكن الاجمل ان تعيش على امل ان القادم خير اعلم اني كثير الكلام وغير مفهوم ولكن ستعلم مالذي اوصلني الى هنا

اراك لاحقا ”

انطلقت شرارة المشروع بلهفةٍ غريبة، كأنها النبتة الأولى التي تخترق تربةً قاحلةً بعد أولِ مطر. أصبح اللقاء في المقهى الهادئ أكثر انتظامًا، لكنه هذه المرة كان محوره أفكارًا تتدافع، وأوراقًا تنتشر على الطاولة، وكتبًا مرجعيةٌ يُقلَّب بين صفحاتها.

لقاءات التحضير: حيث وجد قمحٌ صوتًا جديدًا

في تلك الجلسات، بدا قمح يكتشفُ جانبًا جديدًا من نفسه. لم يعد ذلك الشبحَ الصامتَ في زاويةِ الصف. هنا، بين أوراقِ البحثِ ومعادلاتِ الفيزياءِ وخريطةِ العالم، وجدَ أرضًا يَثِقُ بها، فبدا يتحدث. كانت كلماته لا تزالْ مختارةً بعناية فائقة، كأنه ينحتُها من صخر، لكنها كانت عميقةً، دقيقة، وتحملُ رؤيةً غيرَ مألوفة.

كان يتحدثُ عن نظرياتِ الطاقةِ بلهجةِ العالمِ الشغوف، ويحلُّ الجادةِ التي "ريم"معضلةً رياضيةً بطريقةٍ أذهلتْ الجميع، حتى نظرتْ إليه بإعجابٍ صامت. كانت هذه هي المجالَ الذي يَألَفُه، حيثُ المنطقُ والتحليلُ والهدوء، فشعرَ لأول مرةٍ أنه ليسَ غريبًا.

حتى الضحكات كانت تعلو بينهم. كان وسامُ يلقى نكتةً سخيفةً في بضحكتها الرنانةِ التي أصبحتْ "زنبقة"لحظةِ عالية، فتنفجرُ جزءًا من موسيقى تلك الجلسات. وكان قمحٌ يضحكُ معهم، ليسَ مجرد ضحكة مهذبة ، بل ضحكةٌ حقيقيةٌ تخرجُ من أعماقه.

لكنّ الإرهاقَ وضغطَ العملِ والاختلافَ في الرؤى كانا كفيلين بأن يزرعا بذورَ التوتر. في إحدى الجلسات المتأخرة، وكان الجميعُ مرهقين، عاجزين عن حلِّ مشكلةٍ تقنيةٍ في النموذجِ الذي يبنونه، سادَ صمتٌ ثقيل.

نظر قمحٌ إلى الفوضى التي عمتْ الطاولةَ، والأوراقَ المبعثرة، والوجوهَ المتعبة، وقالَ في نفسه، همسًا يكادُ لا يُسمَع، كأنه يُحدثُ نفسه فقط:

"أصبحنا مثل البهايم نعمل بلا نظام."

كانت العبارةُ خارجةً من إحباطِ اللحظة، ومن طبيعتهِ التي تُحبُّ النظامَ والهدوءَ والدقة. لكنّ الصفَّ كان صغيرًا، والهمسةُ كانت واضحة.

اصطدمتْ الكلمةُ بآذانِ المجموعةِ كصاعقة. تصلَّبتْ الوجوه. نظرَ وسامٌ إليه نظرةَ استفهامٍ مؤلمة. حتى زنبقة، التي كانت دائمًا مبتسمة، جفَّتْ ابتسامتُها. كانت الكلمةُ قاسيةً وجارحةً في لهجةِ حلبَ الدارجة.

حاول قمحُ أن يتراجعَ، أن يشرحَ أنه لم يقصدْهم شخصيًا، أنه كان يعني الفوضى فقط. لكنّ كلماتهِ المتعثرةَ والخجولةَ لم تَسْتَطِعْ إصلاحَ ما انكسر. انتهتِ الجلسةُ في جوٍّ من الصقيع، وخرجَ الجميعُ بقلوبَ مثقلة.

الوحدةُ تعودُ بأثقلَ من ذي قبل

رجع قمحٌ إلى غرفتهِ وكأن العالمَ قد انهارَ عليه. ها هو ذا، بعدَ أن اقتربَ من نورِ الصحبة، عادَ ليخربِطَ كلَّ شيءٍ بكلمةٍ واحدة. شعرَ بأنه ذلك الفأرُ الأعور الذي لا يعرفُ كيفَ يتعاملُ مع البشر. حتى زهورُه لم تعدْ تُجدِي معه نفعًا. لقد أهانَ الأصدقاءَ الوحيدينَ الذينَ اقتربوا منه.

لم يحاولْ أحدٌ منهم الاتصالَ به في اليومين التاليين. وكان هو، في مقعدِه في آخرِ الصف، يتجنبُ النظرَ إليهم، يشعرُ بثقلِ نظراتِهم من على بُعد. لقد عادتْ الوحدةُ إليه، لكن هذه المرة كانت أكثرَ مرارة، لأنها كانت مُختلطةً بشعورِ الذنبِ والندم.

محاولاتُ التصحيح: وعثاءُ الطريق إلى القلوب المُغلقة

بعدَ يومين من العذاب، قررَ أن يحاولَ الاعتذار. كتبَ رسالةً طويلةً يشرحُ فيها سوءَ الفهم، ويبوحُ بإحباطه ذلك اليوم، ويصفُ لهم كمْ هم مهمونَ له. لكنه، وفي لحظةِ شك، مزقَها. لم تكنْ الكتابةُ أسلوبه.

حاولَ أن ينتظرهم عندَ الباب، لكنّ وسامًا كان سريعَ الخطى، وزنبقة وريم كانتا تنظرانِ إليه ثم تنصرفانِ بسرعة.

كان اليأسُ يغلقُ عليه الأبوابَ واحدةً تلو الأخرى.

الصمتُ بين قمحٍ وزنبقة: جسرٌ من زجاج

وأثناء كل هذا، بقي الصمت بينه وبين زنبقة هو الأثقل. لم يتحدثا أبدًا بشكلٍ منفرد. كانت تتجنبهُ بتلقائيةٍ بعد الحادثة، وكان هو يخجلُ حتى من الاقترابِ منها. كان يحتفظُ في ذاكرتهِ بضحكتها وصوتها، لكنهما أصبحا الآن مصدرَ ألمٍ مصدرَ فضول.

كان يشعرُ وكأنه داسَ بقدميهِ على زهرةٍ كانتْ قد بدأتْ تتفتحُ بينهم، فسحقها.

وفي إحدى الأمسيات، وهو جالسٌ في شرفتهِ ينظرُ إلى سماءِ حلبَ الباهتةِ بسببِ أنوارِ المدينة، أدركَ أن عليهِ أن يحاولَ مرةً واحدةً أخيرة. ليسَ بالكلمات، بل بالفعل.

فتحَ حاسوبَه، وبدأ يجمعُ كلَّ البحثِ الذي قاموا به، يرتبهُ، يحلُّ المعضلاتِ التي عجزوا عنها، يبني نموذجًا رقميًا متكاملاً للمشروع، وكتبَ ملاحظةً بسيطةً في نهايته:

"هذا هو الجهدُ الذي جمعتُه من أجْلنا. أعتذرُ مرةً أخرى عن كلمتيِ الغبية. لم أقصدْ إهانةَ أحد. أنتم لستمْ بهايم، بل أنتمْ أفضلُ فريقٍ يمكنُ لأحدٍ أن يحلمَ بالانضمامِ إليه. - قمح"

أرسلَ الملفَ إلى وسامٍ وزنبقة وريم.

"احفظ هذا الجزء جيدا لتعلم سخرية القدر"

مضت أربعة أيام كاملة من الصمت الثقيل، كانت أثقل على قلب قمح من سنوات العزلة التي عاشها. كل محاولة يائسة باءت بالفشل. النظرات التي تتجنبه، والردود المقتضبة، كلها كانت كالسكاكين تمزق ذلك الأمل الهش الذي بدأ ينمو في داخله.

لكن رسالته الأخيرة، التي احتوت على خلاصة جهوده وعصارة فكره، كانت هي الصاعق الذي أيقظ ضمائرهم. كان قد بذل فيها جهدًا خارقًا، لم ينم ليالٍ، رتب كل شيء، حل كل المشاكل التي عجزوا عنها، وقدمها لهم كهدية اعتذار صادقة

وبعد ساعات من الانتظار اليائس، جاءته رسالة من وسام:

"شكرًا لك يا قمح.. لقد كان هذا مذهلاً حقًا. لم نكن لنصل إلى هذا لوحدنا."

ثم، وبقلب يرتجف، رأى إشعارًا آخر. إنها زنبقة.

"أنت مذهل.. وشكرًا على الاعتذار. الكل يخطئ. نريد أن نلتقي بعد المدرسة غدًا لنتمرن على العرض التقديمي."

كانت كلماتها مختصرة، لكنها كانت كافية لأن تذيب جبل الجليد الذي كاد أن يخنق قلبه. دموع من الفرح والراحة انهمرت من عينيه لأول مرة منذ زمن طويل. لقد غفروا له.

التدريب: قمح يقود الدفة

التقوا في اليوم التالي في المقهى المعتاد. كان اللقاء محرجًا في البداية، لكن حماسة المشروع وسعة صدر وسام وذكاء ريم ساعدوا على كسر الحاجز. أما زنبقة، فكانت محافظة على بعض التحفظ، لكنها كانت مهنية ومتعاونة.

وهنا، برز قمح بشكلٍ لم يعرفه أحدٌ من قبل. لقد تحول من ذلك الفتى الخجول المنطوي إلى قائدٍ حقيقي. كان يعرف كل تفصيلة في المشروع، كل معادلة، كل خريطة، كل نظرية.

بدأ يدربهم بتركيز وصبر شديدين. كان يوزع المهام بدقة:

"وسام، أنت متحدث بارع، ستهتم بالمقدمة والخاتمة."

"ريم، ذاكرتك قوية، ستشرحين جزء الجغرافيا والتغيرات المناخية."

"زنبقة، لديك حضور لطيف، ستنقلين فكرة الطاقة النظيفة وكيفية استغلالها."

ثم كان هو، سيتولى شرح التعقيدات العلمية والفيزيائية والرياضية.

الاستعداد للعرض: توتر يسبق الانطلاق

مع اقتراب يوم العرض، أصبح التوتر كبيرًا جدا. كان المشروع قد نال اهتمام إدارة المدرسة، وسيتم تقديمه في القاعة الكبيرة أمام لجنة من المدرسين وعدد من الطلاب.

ريم كانت تدقق في كل كلمة حتى لا تخطئ. وسام كان يكرر كلماته أمام المرآة. حتى زنبقة كانت قلقة، وكانت تضبط ورقتها بيد مرتعشة.

أما قمح، فكان يتصرف كقائد حربي في ليلة الافتتاح. كان يتمالك أعصابه أمامهم، يطمئنهم، يصحح لهم، يشرح مرة أخرى بأسلوب أبسط. كان يعلم أن هذه فرصتهم ليس للفوز فحسب، بل للتعويض عن كل شيء، ولبناء شيء جميل من بين أنقاض سوء الفهم.

في الليلة التي تسبق العرض، اجتمعوا للمرة الأخيرة. كانوا متوترين لدرجة أن وسام نسي كلماته، وريم ارتبكت في الأرقام. نظر قمح إليهم، ورأى الخوف في عيونهم. توقف للحظة، ثم قال بهدوء شديد:

" استمعوا. نحن لم نعد أربعة أشخاص منفصلين. نحن فريق. أنتم مذهلون، وأنا أؤمن بكم أكثر مما تؤمنون بأنفسكم. غدًا، سنذهلهم جميعًا."

التمرين النهائي: لحظة الحقيقية

بدا التمرين النهائي. وقف قمح أمامهم كما لو كان أمام اللجنة، وبدأوا العرض من البداية. هذه المرة، كان أداؤهم متقنًا. الكلمات تتدفق بسلاسة، الأرقام دقيقة، الشرح واضح.

وعندما انتهوا، ساد صمتٌ ثمين للحظة، ثم انفجر الجميع في ضحكات ارتياح وفرح. حتى زنبقة نظرت إلى قمح ونظر هو إليها، وتبادلا ابتسامة حقيقية خالية من أي حواجز، لأول مرة.

قالت زنبقة بصوتها الرنان الذي أصبح الآن موسيقى في أذن قمح:

"لقد دربتنا بشكل رائع.. شكرًا لك يا قمح."

في تلك اللحظة، شعر قمح أن كل معاناته، وحدته، كآبته، كل تلك المشاعر التي دفع ثمنها غاليًا، قد آتت أكلها. لقد وجد مكانه، ووجد صوته، وها هو الآن يجد قبولًا واحترامًا.

خرجوا من المقهى، ونجوم الليل تتلألأ فوق حلب. كانوا يتحدثون بحماسة عن اليوم التالي. كان التوتر لا يزال موجودًا، لكنه كان توترًا إيجابيًا، توتر من يتحدى المصير.

أما قمح، فقد عاد إلى بيته، وإلى زهوره،هذه المرة لم يخبرهم بما حدث. فقط نظر إليهم مبتسمًا، وكأنه يقول لهم: "لقد وجدت مكاني تحت الشمس أخيرًا.

كان يوم العرض قد حان. ارتدوا أفضل ما لديهم من ملابس، واجتمعوا قبل ساعة من الموعد في القاعة الكبيرة التي بدت مهيبةً ومخيفة في آنٍ واحد. كانت قلوبهم تدق كالطبول، لكنهم كانوا فريقًا الآن، يتنفسون ككائنٍ واحد

قاموا بتجهيز المسرح معًا. حرك قمح الطاولات بنفسه ليضمن أن يكون النموذج الذي صنعوه مرئيًا للجميع. رتبت ريم الأوراق بنظامها المعهود. وسام تحقق من جهاز العرض والصوت عشر مرات. أما زنبقة، فكانت تردد كلماتها بصوتٍ خافت، بينما عيناها تتجولان في القاعة الفارغة وكأنها تتخيلها ممتلئة بالوجوه.

نظر قمح إليهم وهم في ذروة تركيزهم، فرأى فيهم أكثر من مجرد اللهم "شركاء في مشروع؛ رأى أصدقاءً حقيقيين. همس في نفسه: "سلم.

بداية العرض: الريادة بثبات

بدأ العرض. كان ريم أول المتحدثين. بصوتها الهادئ والواثق، شرحت جزء الجغرافيا والتغيرات المناخية، مدعمةً كلامها بالخرائط والإحصائيات التي جمعوها بشق الأنفس. كانت دقيقةً وواضحة، مما منح الجميع ثقةً كبيرة.

ثم جاء دور وسام . بطلاقة لسانه وحضوره المسرحيّ، قدم المقدمة والخاتمة كما لم يتخيلوا. كان يجذب انتباه الحضور بسهولة، ويمزج بين المعلومة والطرفة بشكلٍ رائع.

ثم كانت زنبقة . وقفت في وسط المسرح، وأنارت شاشة العرض بوجهها الجميل. بدأت تتحدث عن الطاقة النظيفة، وكان صوتها رائعًا حقًا، واضحًا، ناعمًا، يحمل حماسةً حقيقية للموضوع. كانت تشرح بسلاسة، وتتنقل بين الشرائح بثقة. نظر إليها الجميع بإعجاب، قمح، الذي كان ينظر إليها مبهورًا بجمال روحها كما بجمال صوتها

ولكن في منتصف كلامها، لمحت عين قمح شيئًا غريبًا. تحت الأضواء الساطعة، رأى قطرات الندى تتلألأ على خدي زنبقة. كانت تبكي.

دمعات صامتة تنزل من عينيها وهي تواصل شرحها بثبات. لم يفهم أحد في القاعة سبب دموعها، ربما ظنوها دموع حماسة أو توتر. لكن قمح، الذي صقلته الوحدة وجعلته قارئًا بارعًا للنفوس، فهم على الفور.

لم تكن دموع فرح أو توتر. كانت دموع ألم. ألمٌ داخليٌّ لأنها شعرت أن أسلوبها في الإلقاء ليس جيدًا بما يكفي. بالرغم من أن أداءها كان رائعًا في أعين الجميع، إلا أنها كانت ترى نفسها بعين الناقد القاسي. شعرت أنها لم تكن بالمستوى الذي تريد، وأن كلماتها لم تكن قويةً بما فيه الكفاية.

رأى قمح كيف كانت تبتسم للجميع بينما الدموع في عينيها، وكيف كانت تمسحها خلسةً بينما تنحني لتشير إلى شيء على الشاشة. هذا المنظر مزق قلبه. لقد رأى فيها انعكاسًا لذاته، ذلك الناقد الداخلي الذي لا يرحم الذي كان يعذبه دائمًا

ثم جاء دوره. وقف وهو يحمل في قلبه ألم زنبقة وحماس الفريق كله. تنفس بعمق وبدأ يشرح.

وانطلق منغمسًا في الشرح كما لم يفعل من قبل. كان كالساحر الذي يحرك الأرقام والنظريات بيديه. كان يشرح المعادلات الرياضية المعقدة وكأنه يحكي قصةً شيقة. كان يتحدث عن قوانين الفيزياء بلغةٍ بسيطةٍ تذهل الحضور.

أعجب الجميع بأسلوبه، حتى لجنة التحكيم كانت تتابعه باهتمام بالغ، وتتبادل نظرات إعجاب. لقد نجح في جعل العلم شيئًا حيًا وممتعًا.

لكن كان جزء من تركيزه منصبًا على زنبقة. كان يلقي بين الحين والآخر نظرةً عليها، محاولًا أن يطمئنها بنظرةٍ يقول فيها: "أنتِ مذهلة، لا تبكي."

عندما انتهى العرض، انهالت عليهم التصفيقات. كان أداؤهم رائعًا بكل المقاييس. تقدم وسام وريم ليشكروا الحضور، بينما وقف قمح وزنبقة في الخلف قليلاً.

همس قمح في أذن زنبقة بصوتٍ خافتٍ لا يسمعه غيرها:

كان أداؤكِ رائعًا جدًا. لم أرى أحدًا يشرح بهذه الروعة من قبل. "
"تلك الدموع.. جعلت شرحكِ أكثر صدقًا وجمالاً.

نظرت إليه زنبقة بعينين مغرورقتين بالدموع مرة أخرى، ولكن كانت دموع ارتياح وامتنان. ابتسمت له ابتسامة صغيرة وقالت: "شكرًا لك.. حقًا."

في تلك اللحظة، لم يكن المهم إذا ما فازوا بالمسابقة أم لا. المهم أنهم ربحوا شيءٌ ثمين: تفهمٌ اعمق لبعضهم البعض، وبدايةُ صداقةٍ حقيقيةٍ قائمة على الاحترام والتقدير.

بعد أن خيم السكوت على القاعة، وحلّ محلّ التصفيق همساتُ المدرّسين المتعجبة وهم يتبادلون أوراق التقييم، خرج الفريق الأربعة إلى خارج المدرسة. كان الهواء المسائي يحمل نسماتٍ باردةً تلامس وجوههم المتعبة، لكنها لم تكن قادرةً على مسح ذلك الخليط المعقّد من المشاعر الذي يحمله كلٌ منهم.

وسام وريم كانا يتحدثان بحماسٍ عن لحظات العرض، يحللان كل تفصيلة، كل نظرةٍ من الحضور، كل إشادةٍ سمعوها. لكنّ قمح كان صامتًا، وعيناه لا تفارقان زنبقة التي تسير بخطواتٍ بطيئةٍ متثاقلة، منعزلةً عن حديثهما، وكأنها تحمل جبلًا من الهموم على كتفيها.

رأى قمح كيف انكمشت زنبقة على نفسها، وكيف كانت عيناها لا تزالان تحملان آثار الدموع، وكيف كانت تتنفس بتنهداتٍ خفيفةٍ كأن أنفاسها لا تكفيها. لم يعد يحتمل الصمت. تخلّف قليلاً عن وسام وريم، واقترب منها.

همس بصوته الهادئ الذي أصبح أكثر "زنبقة... هل أنتِ بخير؟" لطفًا وحنانًا عندما يخاطبها.

لم ترد. فقط هزت رأسها بالإيجاب بطريقةٍ سريعةٍ وكأنها تريد إنهاء الموضوع.

أصرّ قمح، "لكنكِ لستِ بخير. أنا أرى ذلك. يمكنكِ التحدث معي." محاولاً أن يلتقط نظرةً منها.

أدارت وجهها عنه، وكتمت زفيرةً كادت أن تتحول إلى بكاء. ظلت صامتة، وكأن لسانها قد تكلس من شدة الحزن.

هل أنا السبب؟ هل قلتُ أو "حاول مرة أخرى، بطريقة أخرى: كان قلبه يتفطر ألمًا عند فكرة أنه قد يكون "فعلتُ شيئًا أزعجك؟ سبب حزنها مرة أخرى.

هزت رأسها بالنفي هذه المرة، لكنها لم تنطق بحرفٍ واحد. كان حزنها عميقًا جدًا، معقدًا جدًا، لا تستطيع تفسيره بكلمات. أو ربما كانت تخشى أن إذا فتحت باب الحديث، سينهمر دمعها ولا تتوقف.

مشيا بقية الطريق في صمتٍ ثقيل. حتى وسام وريم لاحظا الأمر، فتوقفا عن الكلام ومشيا بتؤدة. كان الجميع يحمل همّ زنبقة، لكن لا أحد يعرف كيف يصل إلى قلبها.

عند باب منزلها، انفصلت عنهم بابتسامةٍ زائفةٍ مكسورة، ودخلت دون أن تلتفت. عاد قمح إلى بيته، إلى غرفته، إلى زهوره. لكنه هذه المرة لم يستطع أن يشاركها همّه. جلس على حافة السرير، والحدثان يتدافعان في رأسه: دموعها على المنصة، وصمتها المطبق على الطريق.

بدأ يفكّر مع نفسه، يحلّل كل نظرة، كل همسة، كل دمعة. لماذا كان حزنها بهذه العمقية؟ لماذا لم تستطع الكلام؟

وفجأة... كالبرق الذي يخطف البصر في ليلة ظلماء، اكتشف الأمر.

لم يكن الأمر مجرد إحباط من أدائها. كان الأمر أعمق من ذلك. لقد كانت تضع سمعتها، وثقة الفريق بها، وثقة قمح نفسه بها، على المحك. كانت تخشى أن تخذلهم، أن تخذل هو.

وهنا، اصطدم قمح بحقيقةٍ أخرى، حقيقةٍ كانت تنمو في قلبه ببطءٍ منذ ذلك اليوم الأول، لكنها الآن تتفجر كالنهر الجاري بعد ذوبان الجليد.

لقد كان يحمل في قلبه الاعجاب لها . لم يكن مجرد إعجاب عابر، بل كان كثيرا. كان إعجابًا بصوتها الذي يقطع الضجيج، بضحكتها التي تضيء الظلام، بذكائها الذي لا يبارى، وحتى بهشاشتها التي تجعلها إنسانةً حقيقيةً تخطئ وتضعف وتحتاج إلى من يسندها.

أحسّ كأن قلبه قد امتلأ فجأةً بكل أنواع الزهور التي يحبها، لكنها كانت كلها من نوعٍ واحد: زنبقة. أحسّ بدفءٍ غريبٍ يغمره، وخوفٍ أكبر ينتابه. ماذا سيفعل بهذا الشعور؟ كيف سيتعامل معه؟ وهو الذي لم يتعلم بعد كيف يتعامل مع مشاعر الصداقة البسيطة؟

ماذا أفعل؟ لقد وقعت "نظر إلى زهوره على الشرفة، وهمس لها: "في حبّ زنبقة.

كانت الزهور تتهادى مع الرياح كأنها تومئ له موافقة، وكأنها "لقد وجدت أخيرًا الزهرة التي تليق بك."تقول:

لم ينم قمح تلك الليلة. دار في غرفته كالطيف، تثقل كاهله اكتشافاته الجديدة. مشاعره تجاه زنبقة كانت كالنار تتأجج في صدره،

وصمتها وحزنها الغامض كان كالماء البارد الذي يخنق تلك النار قبل أن تتقد. ظل يحاول فك شفرة صمتها، كل احتمال يخطر بباله كان أكثر إيلامًا من الذي يسبقه.

في الصباح التالي: السؤال الذي لم يعد يحتمل التأجيل

في الصباح، في طريقهم إلى المدرسة، كان الجو بينهم ثقيلاً. وسام وريم كانا يحاولان كسر الجليد بمزاح خفيف، لكنهما فشلا. كانت زنبقة أكثر انطواءً من الأمس، وعيناها تبدوان متورقتين من البكاء.

لم يستطع قمح الانتظار أكثر. همس لها حين تأخرا قليلاً عن الآخرين:

" زنبقة، من فضلك. لا تحملي هذا الحمل وحدك. أنا هنا... نحن هنا من أجلك."

رفعت عينيها إليه، وكانتا مليئتين بمحيط من الألم. رأى فيها تراجعًا، لكنه أصرّ بنظرة ملحة، مليئة بالقلق الحقيقي.

أخيرًا، وبصوتٍ متهدّجٍ بالكاد يُسمع، كما لو كانت الكلمات تُسحب منها سحبًا، قالت:

" هل تعرف ذلك الشعور عندما... عندما تحبّ أحدً وهو لا يعلم بوجودك؟ لا يراك، لا يسمعك، كأنك شبحٌ في عالمه؟"

كانت الكلمات كالصاعقة سقطت على رأس قمح من عالمٍ آخر. توقف قلبه لثانية. العالم من حوله فقد ألوانه وأصواته. كل اكتشافاته الليلية، كل الأمل الذي بدأ يبني، كل الزهور التي تفتحت في قلبه... ذبلت في لحظة.

الزلزال: عندما يتحول الأمل إلى رماد

أدرك فورًا. لقد كانت تحبّ شخصًا آخر. شخصًا لا يعلم بوجودها. كل ذلك الحزن، كل تلك الدموع، كل ذلك الصمت... كان من أجل شخصٍ آخر.

شعر وكأن الأرض قد انفتحت تحت قدميه. حاول أن يبتسم ابتسامة شاحبًا، وكأنه يفهم ، لكن كل شيء في داخله كان ينهار. لقد خسر روحه في تلك اللحظة. لقد خسرها قبل حتى أن يملكها.

لكن حنانه الفطري، وتضحيته التي هي جزء من كيانه، انتصرت على ألمه. لم يفكر في نفسه، بل فكر فيها هي، في ألمها.

بصوتٍ أجشّ، حاول أن يساعدها:

كان كل كلمة تكلفه جهدًا جبارًا. "أنا... أفهم. هذا مؤلم جدًا."
لكن... من هو؟ ربما يمكنني مساعدتك؟ ربما هو لا يعلم لأنكِ... "
"لأنكِ تخفينه بشكلٍ جيد.

نظرت إليه نظرة شكر مليئة بالأسى، وهزت رأسها:

"لا فائدة. الأمر معقد. وهو... بعيد."

أراد أن يسأل أكثر، أراد أن يعرف من هو هذا الشخص المحظوظ الذي يملك قلبها دون أن يدري، لكن الكلمات علقت في حلقه. كان الألم يخنقه.

مشيا بقية الطريق في صمت، لكنه كان صمتًا مختلفًا. كان صمته هو صمت رجل قد دُفن حيًا، وصمتها هي صمت من تشارك سرًا ثقيلاً.

طوال اليوم في المدرسة، كان قمح يؤدي دورًا لم يتدرب عليه. كان يبتسم لوسام وريم، يشارك في النقاشات، لكنه من الداخل كان فارغًا، مكسورًا. كل مرة تنظر فيها زنبقة إليه بشكر، كان يشعر كأن سكينًا تنغرز في قلبه.

كان يحاول أن يقدم لها النصائح، أن يظهر الدعم، لكنه كان يموت في كل مرة. رأى كيف تتألم من أجل شخص آخر، بينما هو يتألم من أجلها.

شكرًا "في نهاية اليوم، عندما انفصلوا، نظرت إليه زنبقة وقالت: "لأنك استمعت لي... وأنك فهمت.

ثم انصرف، وهو "العفو... دائمًا."أجابها بصوتٍ لا يكاد يخرج: يحمل في قلبه دمارًا كامل

عندما أغلق باب غرفته، انهار. سقط على ركبتيه، ودفن وجهه بين يديه. لم يبكِ. كان الألم أعمق من أن تخرجه الدموع. لقد حاول كثيرًا أن يساعدها، أن يكون صديقًا لها، لكنه في النهاية خسر.

خسر الحلم الذي لم يعشه، خسر الأمل الذي ولد بالأمس، وخسر جزءًا من روحه ذهب معها وهي تحكي له عن حبها لشخصٍ آخر.

نظر إلى زهوره، فلم تعد جميلة. رأى في كل زهرةٍ انعكاسًا لزنبقة، التي هي بدورها تحب زهرةً أخرى لا تراها.

أدرك في تلك اللذعة القاسية من القدر أن الحبّ ليس دائمًا جميلاً يكون قاسيًا، جائرًا، يزرع الزهور في قلوب البعض بينما يزرع الأشواك في قلوب آخرين.

بعد أن انكشف الغموض الذي كان يُحيط بحزن زنبقة، دخل قمح في دوامةٍ من المشاعر المتضاربة. من ناحية، كان قلبه ينزفُ من

جرحٍ غائرٍ بعد أن علم أن حبها مُوجَّهٌ لشخصٍ آخر. ومن ناحية أخرى، لم يستطع أن يقتل في نفسه ذلك الحنو الفطريّ، وتلك الرغبة العميقة في رؤيتها سعيدة، حتى لو كان ثمن سعادتها هو حزنه هو.

فبدأ فصلٌ جديد من المحاولات الكثيرة، لكن هذه المرة كانت محاولاتٍ صامتةً، لا تطلبُ شكرًا ولا انتظارًا لمقابل. كانت محاولاتٍ نقيةً نابعةً من أعماق روحه المعطاءة.

كان يحرصُ على أن يبتسم لها ابتسامةً طبيعيةً كل صباح، يفكر كانت تكلفه جهدًا جبارًا. كان يفتح لها الباب، يحمل عنها كتبها الثقيلة دون أن تطلب، يمرر لها ورقةً أثناء الحصص فيها كلمة تشجيع بسيطة أو آية قرآنية عن فرج بعد ضيق كان يكتبها بخطّه الواضح الجميل.

كان يدعو لها في صلواته، في سجوده، في جوف الليل. يطلب من الله أن يفرّج كربها، أن يهبها القلب الذي تريد، أن يجعلها سعيدةً وحتى إذا لم يكن هو مصدر تلك السعادة. كانت أدعيته من أصدق الأدعية، لأنها كانت غير ملوثة بحظّ النفس.

ثم جاء اليوم الذي غابت فيه زنبقة عن المدرسة. قالوا إنها مريضة. بالنسبة للآخرين، كان الأمر عاديًا، يومٌ سيُعوَّض. أما بالنسبة لقمح، فقد كان العالم قد توقف.

سأل عنها بتلعثمٍ خجول، فقيل له إنها تعاني من التهابٍ حادٍّ في الحلق والرئة. خاف عليها خوفًا لم يشعر به على أحدٍ من قبل. كان قلبه يتقلصُ كلما تخيلها وحيدةً، متألمةً، لا تستطيع الكلام (تلك النعمة التي كان يحبّ أن يسمعها منها حتى وهي حزينة).

لم يستطع الانتظار. بعد المدرسة، اشترى لها علبةً من أفضَلِ عسلٍ مُعَزِّزٍ للمناعة، وجمع لها مجموعةً من أعشابِ الزعتر واليانسون المعروفة بفائدتها، ووضعها في كيسٍ صغيرٍ جميل. وكتب لها رسالةً قصيرةً على ورقةٍ زرقاء:

"الشفاء العاجل.. دائمًا بألف خير. - قمح"

لم يوقّع باسمه حتى، خوفًا من أن تزعجها أو تُربكها.

ذهب إلى بيتها، ووقف تحت شباكها مترددًا، ثم سلّم الكيس لأخيها من زملائها في المشروع.. "الكبير وهو يقول له بصوتٍ خافت: "نتمنى لها الشفاء.

عاد إلى بيته ذلك اليوم وهو يشعر بقلقٍ شديد. كان يتفقد هاتفه كل دقائق آملا أن يصل خبرٌ عن تحسنها. كان همه الوحيد هو صحتها، حتى نسِيَ ألمه هو.

في اليوم التالي، عادت زنبقة إلى المدرسة، لا تزالُ تبدو عليهَا الإعياءُ، لكنها أفضل. أول شيء سمعته حين دخل الصف كان "هل هي بخير الآن؟"صوت قمح الهادئ يسأل وسام:

التفتت إليه، وشكرته بنظرةٍ دافئةٍ متفهمة أنه كان مصدر تلك "شكرًا على العسل والأعشاب.. والورقة."الهدية. همست له:

"العفو.. الحمد لله على سلامتك."قال لها وهو ينظر إلى الأرض:

في تلك اللحظة، رأت في عينيه شيئًا لم تره من قبل: وفاءً نادرًا، و إخلاصًا لا يتكلّف، و خوفًا كان لأجلها هي، لا لأجله.

لم تكن تعلم أنه كان يموت من الداخل في كل مرة يراها تتألم، ولم تكن تعلم أنه كان يدعو لها في كل صلاة، ولم تكن تعلم أن قلبه كان قد انكسر مرتين: مرة لأنها لا تحبه، ومرة لأنها كانت مريضة.

لكنها شعرت بصدق هذا الودّ، بصفاء هذه المشاعر. لم تكن تعرف طبيعتها، لكنها علمت أنها كانت ثمينة.

وهكذا، من بين ركام الألم وخيبة الأمل، برزت كمالة أخلاق قمح. لقد قدّم درسًا في كيف يمكن أن تحبّ بشرف، دون أن تطلب، دون أن تنتظر، ودون أن تؤذي.

بعد أن كسر حاجز الصمت بينهما بصدق مشاعره وحرصه عليها، دخلت علاقة قمح وزنبقة في مرحلة جديدة غريبة. لم يعد مجرد صديق هادئ في المجموعة، بل أصبح مأوىً لها، والمستمع الأول لأسرارها وأحزانها.

وبدأ يكثر كلامهما. تحولت المحادثات العابرة إلى ساعات متواصلة يتسامرون فيها عبر الهاتف. كانت هي تتحدث عن حبها المستحيل، عن آلامها، عن أحلامها التي تبدو بعيدة. وكان هو يصغي بكل كيانه، كأن كل كلمة تنطقها هي نغمة في سمفونية يعشقها.

كان يحاول أن يخفف عنها، يحلل لها الموقف، يقدم لها النصائح التي تظهر الحكمة رغم صغر سنه. كان يحل مشاكلها بمنطق هادئ، وقلب كبير يتسع لألمها. كان يضحك معها على النكات السخيفة، ويشاركها في تفاصيل يومها الصغيرة.

وفي خضم هذا كله، نسي قمح نفسه. أهمل دراسته التي كانت دائمًا ملاذه. أهمل مشروعه العلمي الذي كان مصدر فخره. أهمل حتى زهوره على الشرفة التي بدأت تذبل من قلة العناية، كأنها صورةٌ من صور قلبه الذي يذبل في سرية.

أصبح كل ما يملكه في الحياة هو حديث معها. كانت سعادته الوحيدة هي أن يسمع صوتها يضحك، أن يشعر بأنه قد أسعدها ولو للحظة. كان يعيش من أجل هذه اللحظات، ضاحيًا بكل إنجازاته، بكل طموحاته، في سبيل رؤية ابتسامة على وجهها.

ثم جاءت اللحظة التي كانت كالسكين في قلبه. في إحدى الساعات المتأخرة من الليل، قالت له بصوتها الرنان الذي يعشقه:

أنت أصبحت مثل أخي الكبير... لا أعرف ماذا افعل لو لم تكن " في حياتي.

اصطدمت الكلمات بقلبه كأنها صخرة. نادته أخاها. هو الذي يحمل لها في قلبه لهيبًا لا يطفأ، والذي يرى في كل نظرة منها كونًا كاملاً.

لكنه في داخله "أنا سعيد لأني بجانبك."همس لها بصوت مكسور: لكني لست بأخيك أبدًا... أنا عاشق في السر."كان يصرخ:

"تصبح على خير يا أخي."قبل أن ينهي المكالمة، سمعتها تقول:

وأطفأت السماعة. أما هو، فأطفأ الأمل في قلبه.

جلس في غرفته المظلمة، ينظر إلى شرفة زهوره الذابلة. لقد أعطاها كل وقته، كل اهتمامه، كل مشاعره... وحصل على لقب ."أخي"

أدرك في تلك اللحظة المرة أنه أصبح سجينًا في دائرة اللافائدة. يحبها في السر، يخدمها في العلن، ويقنع بقربها منه حتى لو كان هذا القرب يؤلمه أكثر من البعد.

جاءت تلك الليلة وكانت شديدة القسوة على زنبقة. كان الحبيب الغائب قد نشر صورةً له مع أخرى، فانهار عالمها. هاتفت قمح في

ساعة متأخرة من الليل، وصوتها شديد الحزن يقطع عبر السلك كأنه أنين انكسار.

همست بدموعٍ غزيرة. "أنا لا أستطيع... حقًا لا أستطيع التنفس,"

فاستيقظ قمح من نومه، وقلبه ينفطر ألمًا لها. لم يتردد. أضاء مصباحه وجلس يستمع. وبدأ يطبطب عليها بالكلام. كان كلامه ناعمًا حانيًا، كالندى على أوراق الزهور الذابلة. حكا لها عن صبر أيوب، عن فرج بعد ضيق، عن أن الأقدار تخفي خيرًا لا نراه. كان يتكلم وهو يشعر أن كل كلمة يقولها هي إبرة تُغرز في قلبه، لأنه كان قد تملكه آلام الحب منها. كان يتألم لألمها، ويتألم لأنه ليس هو مصدر سعادتها.

ثم، في ذروة حزنها، قالت الكلمات التي مزقت قلبه إلى ألف قطعة:

"يا ليتَه يعلم كم أشتاق إليه... يا ليتَه يراني."

سكت قمح لحظة. شعر كأن سكينًا قد اخترق صدره. أغمض عينيه عن السماعة، وتخيلها في باله وهي تحلم بذلك الشخص، بينما هو جالسٌ هنا، يعيشُ لأجلها، يموت لأجلها.

الدعاء: عندما يذوب الحبيب في مناجاة ربه

بعد أن أنهى المكالمة، وهي قد هدأت قليلاً بفضل كلامه، لم يستطع قمح النوم. نهض من سريره، وتوجه إلى زاوية مصلاه. أخذ في الليل يدعو لها. لم يدعُ لنفسه، لم يطلب منها شيئًا. بل جعل كل دعائه لها.

" اللهم افرج كربها، اللهم أسعدها، اللهم ارزقها قلبَ من تحب، اللهم املأ حياتها نورًا وبهجة."

و اشتد في الدعاء حتى ابتلت لحيته بالدموع، حتى انحنى ظهره من شدة المناجاة، حتى أصبح كل كيانه عبارة عن قبضة ألمٍ تطلب الرحمة لمن تحب. كان يدعو لها بأن تحصل على كل ما تريد، حتى إذا كان ما تريده هو شخصٌ آخر.

الصباح: الصحوة التي غيرت كل شيء

في الصباح، استيقظت زنبقة وهي تشعر بخفة غريبة. وكأن ثقلاً كبيراً قد أُزيح عن صدرها. نظرت إلى هاتفها، إلى صورة ذلك الحبيب الغائب، فلم تعد ترى فيها ذلك الألم الذي كان يفتتها.

شيء ما قد تغير.

لقد استيقظت لتجد أن مشاعر الشوق والألم التي كانت تملكها قد ذابت. لم تعد تشعر بذلك الوجع القديم. لقد اختفى ذلك الهاجس الذي كان يطارده.

نظرت حولها، وكأنها ترى العالم لأول مرة. تذكرت صوت قمح الهادئ في الليل، كلماته الحانية، دعاءه الذي اجتاز السماء. شعرت بأن هناك يداً حانية قد مسحَت على رأسها وأزالَت عنها همها.

ذهبت إلى المدرسة ذلك اليوم، وكانت خطواتها خفيفة. عندما رأت أو "أخ"قمح، نظرت إليه نظرة مختلفة. لم تعد ترى فيه مجرد صديق. رأت فيه ذلك الوجود الثابت الذي لم يهتز حتى في أحلك لحظاتها.

أحست بأن قلبه آمن، بينما كان حبيبها الغائب مجرد سراب.

لم تنطق بكلامها بعد، لكنها بدأت ترى. بدأت تشعر بأن الحب الحقيقي ليس ذلك الشعور المؤلم الذي يبعثك في منتصف الليل باكية، بل هو ذلك اليد التي تمسح دموعك في منتصف الليل.

وهكذا، استقرّ الحال على ما لا يُرضي القلب، ولكنّه قُدِّر وانقضى. ظلَّ قمح ذلك الأخَ الحاني، الرفيقَ الأمين، والسندَ الذي لا يتزعزع في حياة زنبقة. كان يضحك معها حين تضحك، ويحمل عنها همومها حين تحزن، ويُذكِّرها بقدرها حين تيأس، وكأنه شجرةٌ باسقةٌ تظلّها من لهيب أحزانها.

لكن خلف هذه الصورة الهادئة، كان هناك تعذيبٌ صامت لا يعلم به أحد. كان كلّ ابتسامة يمنحها إياها تكلِّفه جهداً جباراً، وكلّ كلمة طمأنة يقولها لها تُخرجها روحُه من أعماقها. كان يراقبها وهي تتعافى يومياً من حبٍّ يم, وهي لا تعلم أنها تخطو على أنقاض قلبه هو. كان يحبّها بأخلاقه أولاً، فقدمّ راحتها على راحته، وسعادتها على سعادته.

أصبح حبّه سراً مُعلناً بينه وبين ربّ العالمين فقط. يذكره في سجوده، ويبثّه له في دمع الخلوات. وهو يرى أنها أصبحت أكثر قرباً منه، وأكثر ثقةً به، لكنّها لا ترى فيه إلا ذلك الأخ الذي لا يطمع في شيء.

الفصل الثالث

(حبال الاقدار تتشابك)

مرت الأيام والأسابيع، وتوالت الشهور، والقلبُ الوامض في صدر قمح لم يخْبُ ُ ء لهيبُه لحظة. أصبح هو وزنبقة مقربين بشكلٍ لم يتخيله أحد، حتى أنفسهما. كانت تمضي الأيام وهما كظلّين متلاصقين في المدرسة، وفي جلسات المذاكرة، وفي المحادثات الهاتفية التي تمتدّ ساعات.

لكنّ هذه القرب كانت تحمل في طياتها نارًا تتأجج في صدر قمح.

كان يهتم فيها في سره لا في العلن. كان يملأ حقيبتها بقطع الشوكولاتة التي يحبّها، يضعها بين كتبها دون أن ترى.

كان ينتظرها عند باب المدرسة كل صباح، متظاهرًا بأنه مجيئه في ذلك الوقت. كان يحمل عنها حقيبتها الثقيلة، "يصادف" يفتح لها الباب، يحميها من زحام الطلاب في الممرات، كل ذلك بصمت، بلغة أفعالٍ يقول بها ما يعجز لسانه عن النطق به.

وظل يحبها في صمت دون كلل أو ملل. كان حبًا نقياً، لا يشوبه طمع، ولا ينتظر مقابلاً. كان يكفيه أنها موجودة في حياته، يكفيه أن يسمع ضحكتها، أن يرى عليها علامات الراحة. كان يعتبر نفسه حارسًا لها، حتى من نفسها، حتى من حبها القديم الذي لم يعد يذكرها.

في الليالي التي كانت تشعر فيها بالحزن، كان يصغي لها حتى تغفو وهي على الهاتف، ثم يبقى هو مستيقظًا، يدعو لها بأن يمحو الله ألمها، وأن يبدله فرحًا.

وكان يغار عليها غيرةً صامتةً تأكل قلبه. يغار إذا تحدث معها أحد الزملاء أكثر من اللازم. يغار إذا رأى عليها إعجابًا بشيء قاله شخص آخر. لكنه لم يفتح فمه أبدًا. كانت غيرةً محترمة، لم تتحول أبدًا إلى تدخل أو منع، لأنها في الأساس لم تكن تملكه.

كانت كل هذه المشاعر الجياشة تموت في مهد صمته، دون حروف تخرج من فمه. كان لسانه سجينًا خلف جدارٍ من الخوف: خوف أن يخسرها، أن يخسر هذه القرب، أن يُرفض، أن تُكسَر تلك الصورة الجميلة التي أصبح عليها في عينيها.

وبمرور الوقت، بدأت زنبقة تلاحظ هذا الاهتمام الزائد. كانت تتساءل في نفسها: لماذا هذا الصديق يمنحها كل هذا الوقت؟ لماذا يراقبها بهذه العناية؟ لماذا يدعو لها بهذا الدعاء الذي يسمعها إياه أحيانًا؟

كانت الأسئلة تتراكم في رأسها، لكنها لم تجد إجابةً بعد.

ومضت الأيام على هذا النحو، قمحٌ يغمرها بصمته الحاني، وهي تسبح في بحر اهتمامه دون أن تدرك أعماقه. لكنّ طبيعة العلاقات لا تخلو من شوائب، وبدأ نمطٌ غريبٌ يطفو على السطح.

وبدأت جانب من شخصية زنبقة - تلك التي تحبّ الدعابة والمرح أحياناً - تستمر في إزعاجه دون قصدها. كانت تختبر حدوده بلطف، أحيانًا تستعير قلمه المفضّل وتنسى إعادته، أو تُطلِق لقب عليه أمام الآخرين يحرجه، أو تُكثر من السؤال عن تفاصيل في يومه لا يحبّ البوح بها.

كانت تفعل ذلك بدافع الألفة والثقة، ظنًا منها أن هذه الدعابة تقرّب المسافات. وعندما ترى ظلّ الضيق يمرّ على وجهه، كانت تعتذر فورًا بندم حقيقي: "آسفة جدًا يا قمح، لم أقصد إزعاجك."

فيغفر لها في الحال، لأن قلبه أوسع من أن يحمل عليها ضيقًا. لكنها، وكأنها مقيدة في دائرة، تعود وتزعجه بطريقة أخرى بعد أيام. أحيانًا كانت تسخر من جدّيته الزائدة، أو تنتقد طريقة شرحه لدرس ما بطريقة غير مباشرة.

وصل الأمر إلى ذروته في يومٍ كانت فيه أعصابه مرهقة. انتقدت فكرةً كان يقدّرها في المشروع، ووصفتها بـ "المملة". لم يمرّ الأمر بسهولة. غضب منها غضبًا صامتًا. لم يرفع صوته، لكن عينيه الواسعتين اظلمتا، وأغلق دفتره بهدوءٍ فيه شيء من القسوة، ومشى بعيدًا.

لم تكن تعلم كيف تصالحه. اعتادت أن يعود هو أولاً، أن يبتسم لها وكأن شيئًا لم يكن. لكن هذه المرة، ظلّ صامتًا، مبتعدًا. حاولت أن تقترب، أن تعتذر ايضا، لكنه كان يتحاشاها بلباقة.

فما كان منه إلا أن يصالح نفسه وحده. جلس مع ذاته، وقال لها: "هي لا تعرف حدودك، ولا تفهم كم كلماتها تؤثر فيك. اغفر لها، لأنها لا تدري." وهكذا، غفر لها مرة أخرى، من دون أن تطلب.

وبعد أيام قليلة، عادتْ هي وتزعجه من جديد، وكأن شيئًا لم يحدث. بل وكأنها تهوى ذلك دون أن تشعر. ربما لأنها وجدت في ردّة فعله الصامتة اهتمامًا، أو لأنها تأكدت أنه آمن يمكنها أن تخطئ ثم تعود، دون أن تخسره.

وأصبحت تكثر من الشكر له بطريقة مبالغ فيها أحيانًا، كأنها تحاول "تعويض الإزعاج بالامتنان. شكرًا لك مليون مرة، ما كنتُ سأنجح بدونك." فتشعره بأنه مجرد أداة للمساعدة، لا إنسانًا بمشاعره.

وهكذا تدور العجلة: إزعاج، اعتذار، غضب صامت، مغفرة من طرف واحد، ثم العودة إلى نقطة الصفر

وتوالت الأحداث، وتعمقت الحلقة المفرغة التي يدور فيها قمح، كل حلقة تُزيد من جراحه وتُثقل كاهله بصمتٍ يَكتمُ أنفاسه. كانت المشاكل الصغيرة التي تثيرها زنبقة - دون قصدٍ منها في الغالب - كالنقر على وترٍ حساسٍ في أعماقه، حتى كاد أن ينقطع.

في إحدى الجلسات، وبينما كانوا يتذكرون ذكريات المدرسة، أفرطت زنبقة في الضحك على قصةٍ مضحكةٍ له، لكنها استخدمت لقبًا قديمًا كان يكرهه. رأى ظلَّ الإحراق يخيم على وجهه،
آه، أنا غبية! نسيت أنك تكره هذا الاسم. آسفة "فاعتذرت فورًا:
فابتسم لها مبتسمًا أجوف، بينما كان قلبه ينزف من جرحٍ "جدًا.
قديمٍ فتحته بسذاجة.

وفي مرةٍ أخرى، قطعها محادثةً هاتفيةً معه فجأة - وكانا في
أخرى اتصلت بها. وعندما "صديقةً"منتصف حديثٍ مهم - لأن
كانت أموري ضرورية. "عادت إليه بعد ساعة، اعتذرت بقولها:
لكنه علم من صوتها أنها كانت تضحك وتلهو "أنت تعلم أنك أهم.
مع الأخرى. شعر بأنه خيارٌ ثانٍ، فالتهم الصمتُ غضبه.

وكانت الذروة عندما نسيت تمامًا أنه كان لديه اختبارٌ مهم، وظلت ترسل له رسائل طويلة طوال الليل تشكو له همومها مع عائلتها.
استمع لها حتى ساعة متأخرة، ودعا لها، ثم ذهب إلى اختباره وهو
يا "منهك القوى. وعندما تذكرت في اليوم التالي، اعتذرت باكية:
لا بأس. "فقال لها: "إلهي، أنا أنانية! كيف نسيت؟ اغفر لي.
وكان يقصدها هي، لا اختبار. "الأمور المهمة أولاً.

في كل مرة كانت تعتذر، كان يعفو فورًا. لكن الاعتذار نفسه أصبح يُشعره بالألم. لأنه كان يذكره بأنها أخطأت في حقه، ثم يذكره بأنه سيسامحها حتى لو أخطأت ألف مرة. كان يشعر أنه يُذوّب كرامته شيئًا فشيئًا في بوتقة حبه لها.

بدأت هذه المشاكل التي تزعجه ثم تعتذر عليها، تتراكم في داخله كقطع ثلجٍ على منحدر جبلي. كل اعتذار كان مثل شمسٍ تذيب القليل، لكنّها تزيد من وزن الكتلة وتجعلها أكثر انزلاقًا.

وصل إلى مرحلة لم يعد فيها يحتمل. كان يحبها أكثر من أي شيء، لكن هذا الحب بدأ يخنقه. بدأ يتساءل: إلى متى سيظل صامتًا؟ إلى متى سيظل يغفر دون أن تفهم هي كم تؤذيه؟

كانت الأزمات الصغيرة التي تثيرها زنبقة وكأنها رياح عاتية تهزّ السفينة التي يقف عليها قمح، لكنه كان دائمًا ما يستعيد توازنه، متمسكًا بحبل صبره المتين. حتى جاءت العاصفة التي لم يستعد لها أحد.

جاء الخبر كالصاعقة في يومٍ عادي. تلقّت زنبقة اتصالاً هاتفيًا من والدها، وبعد لحظات، انهارت على الأرض وهي تبكي بصمتٍ مرعب. لم تكن دموعًا عادية، بل كانت دموعًا قادرة على حفر الأخاديد في الصخر.

تجمّع حولها الأصدقاء، ووسط ذهول الجميع، همست بكلماتٍ بالكاد تُسمع:

"أمي... يشتبهون بإصابتها بالسرطان."

سقطت الكلمة كقنبلة في وسط الصف. الجميع أصيب بالصدمة، لكن لا أحد شعر بها كما شعر قمح. رأى العالم من حوله يدور،

ورأى وجهها الشاحب الذي فقد كل ألوان الحياة، فشعر كأن السقف قد سقط على صدره.

في تلك اللحظة، انمحت كل المشاكل الصغيرة، كل الإزعاجات، كل الاعتذارات. لم يعد هناك مكان لأي شيء إلا لهذا الألم الكبير الذي يهدد أن يبتلعها.

تحوّل قمح فورًا. لم يعد ذلك الشاب الخجول المنطوي. خرجت منه قوة لم يعرفها من قبل. أصبح هو عمودها الفقري في تلك اللحظة.

لحظة المصير: عندما يتحدث القلب دون أن ينطق

اقترب منها، لم يلمسها، لكنه وقف بجوارها كحصنٍ منيع. قال لها بصوته الهادئ الذي أصبح الآن أكثر حزمًا وطمأنينة:

"أنا هنا. لن أتركك لوحدك."

لم تكن كلماتٍ عادية. كانت وعدًا مصيريًا خرج من أعماق قلبه. كانت العبارة الوحيدة التي تحتاجها في ذلك الوقت.

أخذ ينسق مع الأصدقاء لإيصالها إلى بيتها. ظل بجانبها طوال الطريق، صامتًا في معظم الأوقات، لكن وجوده كان اعلى من أي كلام.

في الأيام التي تلت، أصبح قمح ظلها. كان يذهب معها وعائلتها إلى المستشفى، يجلس في غرفة الانتظار ساعات طويلة، يقرأ القرآن يدعو لأمها في صمت.

في إحدى المرات، بينما كانا ينتظران خارج غرفة الفحوصات، انهمرت دموع زنبقة بلا توقف. لم تقل شيئًا، لكنها نظرت إليه نظرة فيها كل خوفها وألمها.

أمسك بها كتابه المفضل، وفتحه على صفحة عشوائية، وأشار بإصبعه إلى آية:

(الشعراء: 80) "وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ"

لم ينطق بكلمة. فقط نظر إلى عينيها. فهمت الرسالة. وضعت يدها على يده وشكرته بنظرةٍ قالَت له فيها أكثر مما قالته له في كل الشهور الماضية.

في تلك اللحظة، بين الألم والأمل، بين الخوف والطمأنينة،اشتبهت زنبقة لأول مرة أن ما يربطها بقمح هو أكثر من مجرد صداقة. رأت في عينيه شيئًا لم تره من قبل: عمقًا من الحب والتضحية لا يمكن أن يقدمه مجرد صديق.

لكنها لم تستطع التفكير في ذلك الآن. كان كل تركيزها على

أمها. لكن البذرة قد زرعت

كانت ساعات الانتظار قبيل ظهور النتيجة الطبية النهائية كسنوات كان يخيم على البيت كله، "سرطان"من العذاب. شبح كلمة وكانت زنبقة على حافة الانهيار، لا تأكل ولا تنام، عيناها لا تجفّ من الدموع.

رأى قمحكيف أنها تذوب أمام عينيه، فلم يتحمل. في صباح يوم هيا نذهب "النتائج، وقبل ساعات من الموعد، أرسل لها رسالة: "في جولة قصيرة.

لم تكن لترفض. خرجا معًا إلى أحد المنتزهات الهادئة على أطراف حلب. لم يتحدثا كثيرًا في البداية. كان يمشي بجانبها في صمت، يسمع لها أنفاسها المتقطعة أحيانًا. ثم بدأ يشير لها إلى جمال الطبيعة من حولهم: إلى زهرة برية صامدة بين الصخور، إلى

عصفور يغرد على غصن شجرة، إلى سحابة بيضاء ترفل في بحر السماء الزرقاء.

كانت جولة هادئة، لكنها كانت رسالةً واضحةً يقول له من خلالها: "انظري، الحياة ما زالت جميلة، والأمل موجود دائمًا."

وببطء، بدأ الجليد حول قلبها يذوب. بدأت تتحدث، ثم تضحك على نكتةٍ قالها له، ثم تشاركه تناول وجبة خفيفة اشتراها لها. استمتعا كأصدقاء، كأخوة، في تلك الساعات القليلة التي نسيا فيها قليلاً من رهبة الانتظار.

كان قمح سعيدًا الزنبقة تبتسم، كان ذلك مؤقتًا. كان يعلم أن هذه اللحظات هشة وقد تتبخر في أي لحظة، لكنه كان ممتنًا لها.

عادا إلى المستشفى، وكانت يدها ترتجف في يده وهو يمسك بها لتطمئنها. دخلت مع أمها إلى عيادة الطبيب، وبقى هو في الخارج، يدعو من كل قلبه.

ثم فتح الباب.

خرجت زنبقة، ولم يستطع قمح أن يقرأ تعابير وجهها للحظة. ثم انفجرت فجأة في بكاءٍ شديد... لكنه كان بكاء فرح.

الحمد لله... الحمد لله رب "رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول: "العالمين... لم تكن مصابة بالسرطان!

كانت التكبيرات والتهاليل تملأ المستشفى. انهارت من شدة الفرح، فالتقطها قمح قبل أن تسقط على الأرض.

شكرًا "عانقته وهي تبكي من الفرح، وتقول له بين الحين والآخر: "لك... كنت معي.

ونظرت إليه. في تلك النظرة، لم يكن هناك أخٌ أو صديق. كان هناك إنسانٌ وقف معها في أحلك لحظات حياتها. رأت في عينيه فرحتها هي قبل فرحه هو. رأت دموعًا من الفرح في مآقيه هو أيضًا.

مرت الأيام بعد تلك الحادثة المصيرية، حاملةً معها نسماتٍ من التغيير. لقد اجتاز الاثنان معًا عاصفةً كادت أن تقتلع جذور الأمل من قلبيهما، فخرجًا منهامتعلقين ببعضهما البعض بطريقةٍ أعمق وأكثر تعقيدًا.

تكررت من حين لآخر مشاكل الإزعاج القديمة. قد تنسى زنبقة موعدًا مهمًا له، أو تطلق عليه لقب يحرجه أمام الآخرين، أو تنتقد شيئًا يفعله بطريقة عفوية. لكنّ النغمة كانت مختلفة الآن.

فلم يعد قمح يستقبل هذه التصرفات بنفس الحساسية المفرطة السابقة. كان يزعجه الأمر، بالطبع، لكنه كان ينظر إليها الآن من خلال عدسة جديدة: عدسة الشخص الذي وقف إلى جانبه في أحلك لحظات الحياة.

هي التي مرت بتلك المحنة، وهي لا تزال "كان يقول في نفسه: فكان يتغاضى، بل وأحيانًا يبتسم لها، "تحتاج إلى من يتفهمها. "أنا أعرفك جيدًا، وأتقبلك كما أنت."وكأنه يقول:

وعندما، لم يعد الاعتذار مجرد كلمات تقال. أصبحت تنظر في عينيه وهي تعتذر، كأنها تطلب الصفح ليس عن خطأٍ صغير، بل عن جرحٍ قديم. وكان هو يقبل اعتذارها بنظرة طمأنينة، كأنه "لا شيء يمكن أن يهز ما بيننا."يقول:

وأصبح وجود كل منهما في حياة الآخر لا غنى عنها. هي أصبحت تعتمد عليه في تنظيم يومها، في حل مشاكلها الدراسية، حتى في

اختيار ملابسها أحيانًا. وهو أصبح يجد في صوتها، حتى وإن كان مزعجًا أحيانًا، الموسيقى التي تملأ صمته.

كانا كشجرتين متجاورتين، جذورهما متشابكة تحت الأرض، لا تعرف إحداهما كيف تعيش دون الأخرى، حتى لو كانت أفرعهما تتصادم أحيانًا مع هبوب الرياح.

وفي لحظات الصفاء، كانت تجلس معه في صمت، فلا تحتاج إلى كلمات. كانت تعلم أنه يفهمها حتى قبل أن تتكلم. وكان هو يرى في عينيها كل الامتنان والحب الذي لم تستطع التعبير عنه بعد.

مرت الأيام وهي تحمل في طيّاتها ذلك التعلّق الغريب بين قمح وزنبقة، حتى قرّرت المدرسة إقامة حفلةٍ كبيرة بمناسبة نهاية العام. وكانت الحفلة هي الشرارة التي ستُضيء ما خفيَ من المشاعر.

قبيل الحفلة بأيام، اجتمع قمح بنفسه في غرفته، ينظر إلى زهوره التي عادت تُزهر من جديد. شعر أن قلبه قد امتلأ حتى الحافة، وأن الصمت لم يعد يحتمل. لقد قرر أن يعترف لها بحبه. خطط أن يطلب منها أن تلتقيه في الشرفة الخلفية للمدرسة بعد الحفلة، حيث الهدوء والنجوم.

تقدّم منها قبل الحفلة بلحظات، وقلبه يدقّ كالطبل، وقال لها بصوتٍ
أحتاج أن أقول لك شيءًا مهمًا "خافتٍ يخلط بين الخوف والأمل:
"جدًا بعد الحفلة. في الشرفة الخلفية.

نظرت إليه زنبقة وكانت مشغولةً بترتيب فستانها وتدريب فرقتها على الرقص، فلم تلتقط نظرةَ الحسم في عينيه.تجاهلته بطريقة غير
"حسنًا، حسنًا، لاحقًا. الآن أنا مشغولة!"مقصودة، وقالت بسرعة:
ثم ولّت مسرعة.

شعر قمح بأن العالم قد انقلب عليه. لقد استجمع كل شجاعته لكي يخطو هذه الخطوة، فإذا بها تتجاهله وكأنه لا شيء. غلي الغضب في صدره. طوال الحفلة، كان يجلس في الزاوية، يشاهدها وهي تتراقص مع الآخرين، وهي تضحك، وهي تستمتع، بينما هو يغلي من الداخل.

بعد انتهاء الحفلة، كانت ذروة الفرح قد بلغت بها. هرولت نحوه "كانت حفلة رائعة، أليس كذلك؟"وهي تضحك، وقالت:

رائعة بالنسبة لك! أنتِ لا ترين إلا نفسك! "فانفجر فيها كالبركان: "أتعلمين أنني كنتُ أنتظرك؟ أتعلمين أن لديّ مشاعر أيضًا؟!

وتشاجرا لأول مرة بشدة. كلمات قاسية خرجت من فمه، وهو الذي لم يعتدِ على الصراخ. وكلمات مستفزة خرجت من فمها، وهي التي لم تتعود منه على الغضب.

انتهى الشجار بأن دارت هي وولّت بعيدًا، وهو مشى في الاتجاه الآخر، و لم يتكلما ليوم كامل.

كان اليوم الذي يليه كابوسًا. الصمت بينهما كان ثقيلاً ومؤلماً. كلٌ كان يشعر بالندم، لكن الكبرياء كان أقوى.

في الليلة الثانية، وبينما كان قمح جالسًا في غرفته يحاول المذاكرة، سمع جرس الهاتف. كانت هي.

هل يمكن أن تأتي؟ أنا عند الشجرة القديمة في "صوتها كان خافتًا: "الحديقة.

ذهب. وجدها جالسة هناك، عيناها محمرتان. بدآ بالكلام، في البداية كان الحديث متوترًا، ثم بدآ يتذكران ذكرياتهم معًا: المشروع،

المستشفى، الحفلة. ثم علا صوت ضحكاتهم فجأة، كأن الشجار لم يكن.

في لحظة من الصفاء، وسط تلك الضحكات، توقف قمح فجأة، زنبقة، أنا أحبك. لقد أحببتك منذ وقت "ونظر في عينيها وقال: "طويل.

سكتت للحظة، ثم انهمرت دموعها، ولكن هذه المرة كانت دموع وأنا أيضًا أحبك، يا قمح. لقد كنتُ عمياء لا أرى ما "فرح. قالت: "أمامي.

الفصل الرابع

(من انا؟)

بعد أن انكشفت الغيوم واعترف القلبان بما يكنّان، دخل قمح وزنبقة في أسبوعٍ كان أجمل أيام حياتهم. كان كالحلم الذي لا يريدان الاستيقاظٍ منه، حيث اختلطت براءة الحب الأول بعمق التجربة التي عاشاها معًا.

منذ الصباح الباكر، كان قمح ينتظرها عند باب المدرسة، ولكن هذه المرة، كانت ابتسامته مختلفة. لم تكن ابتسامة الصديق الوفي، بل كانت ابتسامة العاشق الذي امتلك كنزه. كان يهتم فيها بطريقةٍ جديدة. يحمل حقيبتها، يمسك بيدها لفترات قصيرة خجلاً، ثم "هل أنتِ بخير؟ هل تحتاجين شيئًا؟"يطلقها. كان يسألها كل ساعة: "أنا لست مريضةً حتى تتابعني هكذا!"حتى ضحكت منه وقالت: "أنا أعشق هذا الاهتمام."لكن عينيها كانتا تقولان:

أصبح يخاف عليها أكثر من أي وقتٍ مضى. في الفسحة، بينما كانت تمشي، كاد زميلٌ أن يصطدم بها، فقام قمح بوضع يده على كتفها بحنانٍ ويحميها من الاصطدام، ثم نظر إلى الزميل نظرةً فيها

غيرته الطبيعية، لكنها هذه المرة كانت مغطاة بشرعية الحب.
"أنت تحرسني كأنك حارسي الشخصي."همست في أذنه:
"لأنكِ أغلى ما لدي."فأجابها:

وظهرت غيرته بشكلٍ طريف. عندما تحدثت مع أحد الأساتذة لفترةٍ طويلة حول مشروعٍ علمي، وجد قمح نفسه يقترب منها رويدًا رويدًا حتى وقف بجانبها، ثم بدأ ينتظر بصبر، لكن عينيه كانتا وعندما انصرف، "حسنا، لقد طال الحديث ."تقولان للاستاذ:
فاحمرّ وجهه وقال: "كنت تغار!"نظرت إليه زنبقة ضاحكة:
لكن كلاهما "أنا... أنا فقط كنت خائفًا أن تتأخري على الحصة."
يعرف الحقيقة.

كانت تزعجه بالطبع، كما اعتادت. في أحد الحصص، أخذت قلمه المفضل وبدأت ترسم على كفّ يدها، ثم نسيته في مكانٍ ما. عندما ذكرتها، لم يهتم كما كان في السابق. نظر إليها وهو يبتسم، وقال:
ثم أخرج قلماً آخر من "لا بأس. أعلم أنكِ ستعيدينه عندما تجدينه."
جيبه. لقد أصبح يتقبل عيوبها الصغيرة كجزءٍ من سحرها، وكجزءٍ من الحب الذي لا يشترط الكمال.

أحضر لها في هذا اليوم علبة عصيرٍ كانت تحبها، لكنه تذكر أنها تحب أن تكون مثلجة، فوضعها في الثلاجة قبل المدرسة بساعة.
وعندما قدمها لها، كانت باردةً تمامًا كما تحب. لم تكن هديةً كبيرة، لكنها كانت اهتمامًا بالتفاصيل التي لم يكن ليهتم بها أحدٌ غيرها.

رأت كيف يتعامل مع الأطفال الصغار في طريق العودة إلى البيت، كيف يحني قامته الطويله ليسمع لهم، كيف يبتسم لهم. رأت حنانه الذي لا حدود له، فزادت محبته في قلبها. في المساء، قالت له على فسكت قمح "رأيتك اليوم مع الأطفال... كنتَ جميلاً جدًا."الهاتف:
خجلاً، لكن قلبه كان يرقص فرحًا.

اختتام الأسبوع كان في جلسةٍ هادئة في المقهى المعتاد. كانا يخططان للمستقبل، لأحلامهما معًا. كانت تتحدث بحماس، وهو يصغي لها بنظرة إعجابٍ وحبٍ لا تنتهي. ثم سكتت فجأةً وقالت: فضحك وقال: "أتعلم؟ أعتقد أنني كنتُ عمياء طوال الوقت." "المهم أننا الآن نرى بعضنا بوضوح."

بعد أن ودع زنبقة في نهاية ذلك الأسبوع الساحر، كان قمح يعود إلى بيته وكأنه يحمل على كتفيه كل نجوم السماء. كان فرحاً يغمر كل كيانه، حتى إنه لم يكن ينظر إلى حيث يضع قدميه، بل كان يسير وكأنه يطير.

وفي منعطفٍ قريبٍ من بيته، حيث تُلقي الأضواء الخافتة ظلالاً متطولة على الرصيف، لمح شيئاً ملقى على الأرض. دفترٌ قديم، غلافه من الجلد البنيّ الباهت، يبدو وكأنه سقط من حقيبة أحد المارّة.

حمله بفضول، وفتحه. كانت الصفحات مملوءة بخطٍّ ذكوريٍّ واضح، لكنه يحمل شيئاً من الوجع.

كانت مذكرات شخصية لشابٍّ غريب يدعى كرسيتانو مبيض، تحكي قصة حبٍ فاشلة. بدأ يقرأ وكأنه يفتح باباً على عالمٍ آخر:

" اليوم.. عرفت أنني أكثر شخص واعٍ لذاته بين محيطه، ومنغلقٌ على كل شيء. دائرتي الاجتماعية جداً صغيرة.. كان هذا أكبر عيب لشابٍ مثلي."

توقف قمح، فشعر بغربة الكاتب الذي يشاركه نفس الشعور.

قصة حبٍ محكومة بالفشل

واصل القراءة، فاكتشف قصةً مؤلمة:

في 'آرسس'بعد وقت، أعجبتُ بفتاة.. رأيتها جالسةً تقرأ رواية " الحديقة. نزلت إلى عالمها، وقررت أن أتعرف عليها، وأقرأ ما تقرأ. وفعلاً نجح الأمر.. وأحببنا بعضنا."

كانت الكلمات تُحدث ألماً في قلبه. هو يعرف هذا الشعور.

كانت شخصية حساسة جداً، تبكي لأتفه الأسباب بسبب مشاكلها " العائلية. وفوق كل هذا، كل صديقاتها كنّ يتحدثن عنها بسوء من وراء ظهرها، مما دفعها إلى حفرة الاكتئاب

ثم وصل إلى الجزء الأصعب:

بعد أسبوعين من صداقتنا.. اعترفتُ لها بحبي.. وقبلت ذلك. " ارتبطنا.. كنا على كامل الوعي أن علاقتنا بنسبة 100% لن تدوم للأبد."

كانت الجملة كالسهم. لقد دخلوا العلاقة وهم يعلمون أن نهايتها محتومة.

وما جعل الأمر أسوأ، أن أهلها كانوا شديدين عليها جداً، ولم " يسمحوا لها بالحديث إلى أي شاب!! كانت في عيني ملاكاً!! ومازالت.. كنتُ في ذلك الوقت أباً لها، مليئاً بحنانٍ يلين أي حجر!! وهي كثيراً ما كانت تسعد بهذا."

هنا، غرقت عينا قمح بالدموع. هو يعرف كم تحتاج زنبقة إلى ذلك الحنان.

النهاية الباردة: عندما يسرق الأهل اللحظة

ثم جاءت الخاتمة المفجعة:

حتى.. علم أبوها بالعلاقة وسحب منها الهاتف.. وهكذا انقطعت " علاقتنا.. كانت نهاية باردة.. ولم تستطع أن تفعل أي شيء لتمنع "حدوث هذا.

درس قاسي ودموع متأخرة

قرأ الخاتمة بألم:

تعلمت منها درساً أن الوعي وحده لا يكفي لاستمرار العلاقة.. " ولا حتى الحب.. هناك عوامل كثيرة مثل الاهتمام والمحبة المتبادلة.. ورضى الأهل.. لكنها كانت تحاول من أجل شخص آخر أعجبها بعدما افترقنا.. وتعلمت بعدها ألا أظل أعطي لشخص لا يرد الجميل.. أو يردّه على مزاجه.. تغيرت بعد الوقت - وحتى الآن - صرت إنساناً مختلفاً تماماً.. هي فعلاً علمتني وابصرت عيوني على أشياء لم أكن أراها من قبل.. والآن هي تتمنى أن نعود بعدما تركها ذلك الشخص الذي أعجبها.. وأنا لا أريد حتى رؤية "وجهها..

أغلق قمح الدفتر، ويداه ترتجفان. نظر إلى السماء، وكأنه يرى في انعكاساً لخوفه العميق.. وخوفه على "كريستيانو مبيض"قصّة حبه من أن يصيرَ مثل هذه النهاية.

مضى الليل ونام واستفاق لاسبوع اخر في جنان عدن

لم تكن هدايا قمح وزنبقة في أسبوعهم الثاني مجرد أشياء مادية، بل كانت حديثاً متصلاً بين روحين التقتا بعد طول انتظار. كانت جلستاهما تشبهان حفلات موسيقية صامتة، يعزف فيها القلبان أنغاماً لا تسمعها الآذان، ولكنها تلمس شغاف الروح.

في ظهيرة اليوم الأول من الأسبوع، جلسا تحت شجرة التوت القديمة في حديقة المدرسة. كانت أوراقها الخضراء تتصدى لأشعة الشمس، فترسم ظلالاً متشابكة على وجهيهما.

أتعلم؟ "قالت زنبقة بصوتها الرنان الذي أصبح أغنية في أذن قمح: "كنتُ أخاف من الصمت قبل أن أعرفك.

وأنتِ علمتني أن الصمت ليس فراغاً، بل "ردّ قمح بنظرة حانية: "هو لغة أخرى للحوار.

وجلسا يتحدثان عن أحلام الطفولة . حكت له كيف كانت تخبئ كتبها تحت الوسادة لتقرأها بعد أن تنام أمها. وحكى لها كيف كان يحوّل شرفته إلى مختبر صغير لتجارب الزراعة.

كانت الكلمات تنساب بينهما كالنهر الهادئ، كل جملة تزيح حجراً من جدار الغربة الذي طالما أحاط بكل منهما.

في المساء، بينما كانت أنوار المدينة تبدأ بالتلألؤ، جلسا على مقعد الحديقة الخلفي. كانت زنبقة تتكئ على كتفه بينما يلفها برد المساء الخفيف.

"ما أكثر لحظة مؤلمة في حياتك؟"سألتها بنبرة تحمل كل حنانه:

عندما نسيتني صديقاتي في رحلة "صمتت قليلاً، ثم همست: "المدرسة، وجلستُ وحدي أراقب الجميع يلعبون.

"لن تبقى وحيدة مرة أخرى."فضمّ ذراعه حولها وقال:

ثم حكى لها عن اليوم الذي انكسر فيه نموذجه العلمي الأول، وكيف جلس يصلحه وهو يبكي، لأنه لم يكن يملك مالاً لشراء غيره.

كانت المحادثة كالمرهم على الجروح القديمة، كل منهما يضع يده على جرح الآخر فيحنيه.

أخذهما الفضول إلى مقهى الكتب المهجور في زقاق ضيق. رائحة الورق القديم تفوح في المكان، والضوء الخافت يكاد لا يضيء سوى صفحتي كتاب.

كيف استطعتَ أن "قالت زنبقة وهي تقلب صفحات رواية قديمة: "تظلّ طيباً في عالم قاسٍ؟

فأجابها قمح بينما يراقب كيف تلتمع عيناها في الضوء الخافت: "الطيبة ليست ضعفاً، بل هي قوة نختارها."

لعبد "الأرض"وتحدثا عن الكتب التي غيرت حياتهما . ناقشا لفيكتور هوغو، "البؤساء"الرحمن منيف، وتجادلا حول نهاية لغادة السمّان. "الطواف حيث الجمر"وتوافقا على جمال

كان الحوار بينهما كرقصة باليه، كل كلمة تتبع الأخرى بتناغم، كل فكرة تفتح الباب لأفكار أخرى.

في ليلة من ليالي الأسبوع، جلست زنبقة على شرفة منزله بينما كان يقدم لها كوباً من الشاي الساخن. كانت النجوم تتلألأ فوقهما.

أتعلم أنني كنتُ أخاف من "قالت وهي تشير إلى نجم منير: "الظلام؟

الظلام ليس سوى غياب "فأجابها وهو يعدل الغطاء على كتفيها: "النور المؤقت. وانظري، النجوم لا تظهر إلا في الظلام.

وتحولا إلى الحديث عن المخاوف. خافها من الفشل، وخوفه من خيبة الأظن. حكت له كيف كانت تتظاهر بالمرض لتتهرب من

الامتحانات، وحكى لها كيف كان يختفي في المكتبة عندما يشعر بأنه غير كاف.

بعد لحظات من فراقها المفاجئ عند الباب، ظلَّ قمح واقفاً في مكانه كتمثالٍ من صدمة. هاتفه يرنّ دون توقف برسائل زنبقة اليائسة:

أخي رأى رسائلنا... يعرف كل شيء... يبحث عنك الآن... " "اهرب من هنا!

لكن قدميه كانت مقيضة في الارض. سمع صوت محرّك سيارة يدور بسرعة، فأدرك أن أخاها قد وصل. لم يهرب. وقف ينتظر مصيره، وكأنه يستسلم لقدرٍ مفجع.

مشهد المواجهة المروّعة

نزل الأخ من سيارته كالإعصار، وعيناه تشعان بالغضب المتوحش. أمسك بقمح من ياقة قميصه وهزّه بعنف:

أنت الذي تجرؤ على الاقتراب من أختي؟! سأجعلك تندم على " "اليوم الذي ولدت فيه!

لكن قمحاً لم يبدُ خائفاً. نظر إليه بنظرةٍ فيها ألمٌ أكثر من "أنا أحبها... وهذا ليس جريم ."غضب:

صفعه الأخ على وجهه صفعةً قوية جعلت أذنه ترنّ، ثم همس في إذا اقتربت منها مجددا... "أذنه بنبرةٍ مليئة بالتهديد المميت: "سأدفنك في الصحراء.. ولن يعثر عليك أحد.

ثم دفعه بعنفٍ على الأرض ومضى.

السقوط في هاوية الاكتئاب

عاد قمح إلى بيته... لكنه لم يعد قمحاً الذي كان. دخل غرفته وأغلق الباب على نفسه. الأيام تمرّ وهو جالس في الظلام، لا يأكل ولا يشرب إلا القليل.

كان يحدّق في زهوره على الشرفة وهي تذبل واحدةً تلو الأخرى، كما كان يذبل هو. لم يعد يهتم بها، لم يعد يهتم بنفسه، لم يعد يهتم بأي شيء

مذكرات اليأس

فتح دفتره وكتب بكلماتٍ متقطعة:

"اليوم... العالم فقد ألوانه."

"أسمع ضحكتها في كل صمت... وأرى دموعها في كل ظلام."

"لماذا الحبّ جريمة؟ ولماذا القلوبُ تُعاقب على إحساسها؟"

في إحدى الليالي، حاول الاتصال بها... لكن الرقم كان قد أصبح غير موجود. حذفت كل وجودها... وكأنها اختفت من العالم.

سقط على ركبتيه يبكي.. أول مرة يبكي فيها منذ موت والده. كانت دموعاً حارقةً تحمل كل أحلامه التي تحطمت.

وهكذا... انتهى الامر بقمح يدور في حلقة مفرغة من:

ذكريات الماضي الجميلة

وخوف الحاضر القاتل

ويأس المستقبل المظلم

أصبح الظلامُ صديقه الوحيد... والدموسُ لغته الأخيرة.

بعد أسابيع من الغرق في بحر اليأس، لم يعد قمح يحتمل صمته. في ليلةٍ ماطرة، جلس يحدق في صورة زنبقة على هاتفه، ودموعه تسقط على الشاشة. كتب لها رسالة أخيرة من قلبه المنكسر:

يا زنبقة.. أعلم أنكِ قد لا تريدين رؤيتي، لكنني يجب أن أقول هذا " مرة واحدة فقط. لقد أحببتكِ أكثر من حياتي، وظللتُ أياماً لا أنام ولا آكل، لا أستطيع نسيانكِ. كل زهرة في شرفتي تذكرني بكِ، وكل صمت يهمس باسمكِ. إذا كان هناك ذرة أمل واحدة في قلبكِ، فقابليني مرة واحدة فقط. وإن لم تكوني تريديني، فقوليها لي "بوضوح حتى أنساك وأتركك تعيشين في سلام.

وبعد دقائقٍ طويلة من الانتظار المرعب، جاء الرد:

"لا أريدك... اتركني! أريد أن أنساك... لا أحبك!"

كانت الكلمات كخنجرٍ بارد في قلبه. سقط الهاتف من يده، وانكسرت الشاشة كما انكسر قلبه. جلس في الظلام، يبكي بحرقة لم يبكيها من قبل، حتى أصبح صوته أجشاً من شدة البكاء.

رأته أمه من باب الغرفة، فدخلت واحتضنته وهي تبكي معه. قال لقد قالوا لي إن الحب يصنع المعجزات... "لها بصوت مكسور: "لكن حبي لم يصنع سوى الدموع.

مضت ثلاثة أسابيع كاملة على انهيار قمح، لم يعد فيها يغادر غرفته المظلمة. كان جسده النحيل يرتعد من شدة البكاء المتواصل، وعيناه الحمروان تشبهان جمرتين منكسرتين. جلس على الأرض يحضن دفتر الذكريات الذي كان يضم بين طياته رسائل حبه لماذا تخلّيت عني؟ ألم "لزنبقة، وهم يهمس لها بصوت مبحوح: "أكن كفواً لك؟

كانت زهوره على الشرفة قد ذبلت وماتت تماماً، كما مات الأمل في قلبه. في الليالي كان يسمع ضحكتها في هبوب الرياح، ويشم عطرها في هواء الغرفة، فيمد يده ليلتقطها فلا يجد سوى الفراغ. الحب جرح لا يندمل"كتب على جدار غرفته بقلم أحمر: ".

قمح، حان وقت "وفي ذروة انهياره، سمع صوتاً ناعماً يناديه: رفع رأسه فرأى ممرضة ترتدي الزي الأبيض تقدم له "الدواء . أين زنبقة؟ أريد "حبوباً مهدئة. حاول مقاومتها وهو يصرخ: ليس هناك أحد "لكن الممرضة أمسكت به برفق وقالت: "زنبقة! يدعى زنبقة يا قمح. أنت في مستشفى الرعاية النفسية منذ ستة أشهر".

في تلك اللحظة، انكشف الوهم. تهاوت كل الذكريات كقلعة من الرمال. لم تكن هناك زنبقة، ولا حب، ولا رسائل. كل ذلك كان هلوسة عقلٍ مريضٍ حاول أن يخلق له عالماً بديلاً يهرب فيه من وحدته القاتلة. نظر حوله فرأي الجدران البيضاء، والأسرّة الحديدية، ووجوه المرضى الآخرين الذين يعيشون في أوهامهم الخاصة.

سقط على الأرض يبكي، لكن هذه المرة كانت دموع الوعي المرير بحقيقة أنه كان يعيش كذبة جميلة صنعها عقله لإنقاذه من اليأس.

ياعزيزي القارى مابك مصدوم ؟

ألم تلاحظ كل تلك التفاصيل الناقصة في الحكاية

اعلم انك متعجب ولم تفهم التداخل الذي حصل هنا

بكل اختصار أيها القارى الجميل هذه القصة من نسيج

دماغ قمح كل هذه التفاصيل المفقودة من القصة لم يتذكرها قمح وهو يسرد

اراهن انك لم تدرك بعد ماحدث هنا أيها الجميل قمح هو مريض بمرض نفسي نادر يدمج التوحد والانفصام وهذا من نسج خياليه لكي يهرب من الواقع

حتى انا لست إلا صوت من اصوت دماغه اخاطبك

على حقيقة "مَن تعلق قلبه بغير الله عُذِّب فيه"على كل حال هناك شي في بالي عالق على جدرنه يقول روحية ونفسية عميقة. فالتعلق بغير الله، سواء كان شخصاً، أو منصباً، أو مالاً، أو أيًّا من متع الدنيا الزائلة، هو وهم يقود حتماً إلى شقاء القلب وعذاب الروح. ذلك لأن كل ما سوى الله تعالى فهو فانٍ ومتغير، ولا يملك من أمره ضراً ولا نفعاً، فكيف نجعله مصدر أمننا وسعادتنا؟

ومن أبرز مظاهر هذا العذاب وجوب ألا نجعل شخصاً ما هو بالنسبة لنا، فلا نعطيه مفتاح سعادتنا ولا نجعله محور "الحياة" وجودنا. فحب الإنسان للبشر طبيعة فطرية، ولكن أن يتحول هذا الحب إلى عبادة وتعلق مرضي، فهذا هو الجذر الذي تنبت منه آلام الفراق، وخيبات الخذلان، وجروح التوقع. إن من جعل إنساناً آخر قبلة قلبه الوحيدة، فقد بنى قصر سعادته على أرض مهتزة، يوشك أن ينهار بأدنى هبة ريح، ليجد نفسه فجأة بلا سند ولا معين.

لذلك، فإن السلام الحقيقي يكمن في تصحيح المسار: أن يكون الحب في الله، لا للحب مكانة الله. أن نستمتع بوجود الأحبة حولنا كهدية ونعمة من الله، ولكن لا نعبدهم ولا نستغني بهم عنه. يجب أن تبقى قلوبنا حرة، لا تستعبدها إلا لربها، فلا تذل لأحد إلا له، ولا تخشى فقدان أحد إلا فقدانه.

فليكن تعلقنا بالله هو الأصل، فهو الثابت الذي لا يتغير، وهو الكفيل الذي لا يخون، والغني الذي لا يفقِر. ومن أصلح سريرته مع خالقه، أصلح الله علانيته مع خلقه، ومن اعتصم بحبل الله المتين، وجد الملاذ الآمن من عذاب التعلق الفاني.

قال قمح ثم اغمض عينيه ولم يعد

تمت وبحمدلله